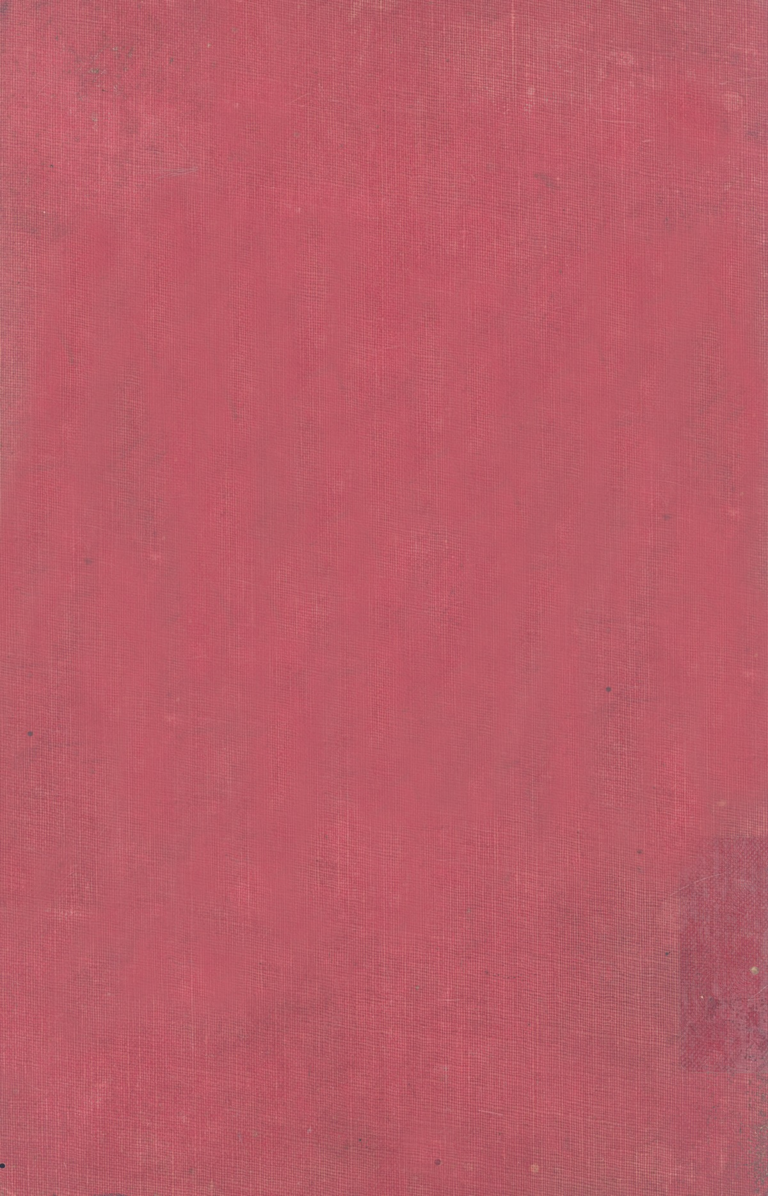








على أطلال المذهب المادي

مرتضى

محمد طاهر الجبري

﴿ الجزء الأول ﴾

« طالع هذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه الا بعد أن تطلق »
« نفسك من أسر الاغراض لئلا تغم عليك وانت واقف تطل »
« على العالم من شرفة عقلك تلمس الحقيقة من وراء ستارها »
(كتبها الدكتور شبلي شميل فوق)
(كتابه فلسفة النشوء والارتقاء)

(تأليف)

محمد فريد وجدي

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)

سنة ١٩٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على التوفيق والهداية ، ونستعينه على السداد والكفاية ، ونصلي ونسلم على خاتم انبيائه ، محمد وعلى آله واوليائه . آمين

مقدمة

لقد كانت للمذهب المادي في القرن الثامن والتاسع عشر دولة امتد سلطانها على عقول اكثر الخاصة وسرى منهم الي بعض العامة ، دولة جنودها العلوم الطبيعية والمعارف الكونية ، ودعاتها المكتشفات الآلية ، والمخترعات الصناعية ، وقادتها العلماء الأعلون ، والفلاسفة المقدمون ، فكان من لايشايعها بحق المجهود الشخصية في بعض الفروع العلمية ، يسايرها طلبا للالمعية ، وتنزها عن العامية .

فكنت لاتري الا عالما ينظر الى الوجود نظر الواقف على صميم أسراره ، الملم بجميع أدواره ، أو متعلما داخله الكبر فردد ماسمعه من استاذه ترديد الببغاء لعبارات ملقنه ، أو متعالما تشدق في المجالس بما قرأه في بعض المجلات ، أو ماسمعه من بعض الثقات . فاذا ذكر مافوق المادة امامهم ذاكر نظروا اليه ، نظر المشفقين عليه ، فأما قرعوه على جموده ان آنسوا منه الفهم ، أوتركوه وما هوفيه من الوهم . . . .

ما هو مؤدى هذا المذهب الذي نال كل هذا السلطان على العقول في مدي قرنين متواليين ؟

مؤداه : ان الوجود قديم ، وان المادة هي مصدر كل كائن ومرجعه ، تلازمها خصائص لاتنفك عنها ، تصلح لان ترقي بها من الجماد الذي لايمي ، الي اكبر فيلسوف المعي ، بتدرجها في أدوار متعاقبة ، مقودة بنواميس ثابتة ، عاملة على نظام آلي بحت لاأثر للعقل والشعور فيه . فكل مايفتنك من آثار التدبير والتعقل ينتهي بالتحليل العلمي الي المادة الاولية ، وخصائصها الذاتية ، وكل ما عدا هذا مما اتت به الاديان والفلسفة من وجود عقل مدبر ، وروح مفكر ، وعالم وراء هذا العالم ، فزخارف كلامية

ولدها الخيال ، وتمسك بها الجهال ، يقوم على حفظها رجال لمصلحة ذاتية ، أو بتأثير وراثة تقليدية ، قد لا يمضي عليهم قرن أو قرنان حتى يضطروا للتخلى عنها فيصبح الناس كلهم اخوانا على المحجة المادية البيضاء ، لا يضربون في متاهات الاوهام ولا يدينون لحلم من الاحلام

هذا هو مؤدي المذهب المادي الذي افتتن به الناس قرنين كاملين وهم ما افتتنوا به الا لانه أعد لكل معضلة حلا خلابا ، وأرصد لكل سؤال جوابا .

فان قلت له : كيف يعقل ان تكون المادة قديمة ؟

اجابك : وكيف يعقل حدوث شيء من لاشيء ؟

فان قلت له : كيف ينشأ النظام من غير قوة منظمة ؟

اجابك : بأن الكون مقود بنواميس ثابتة ، فلا يمكن أن تصدر منها الا كائنات منتظمة .

فان قلت : ان ثبوت النواميس فى وجهة معينة يفضى الى قيام الكائنات على نظام ثابت ، لا يقبل التغير مطلقا ، ولكننا نراه مترقيا متدرجا ، وقد يرتكس في بعض جهاته متقهقرا .

اجابك : بأن هذا التحول نتيجة عوامل ثابتة لتلك النواميس افردت لها في مؤلفات مذاهب التحول فصول كثيرة .

فان قلت له : ان تلك الفصول كلها افردت لتطور الكائنات الحية ، ولكني أسأل عن كيفية طروء الحياة على الجماد ولا يخفي ان طروء الحياة حادث جلل غير وجه الطبيعة كلها .

اجابك : اننا ان كنا نجهل كيف نشأت الحياة فلا يجوز لنا ان نجعل هذا الجهل منا ذريعة الى بناء الصروح والعلالى من الاوهام ، فان ما يبنى على الجهل لا يجوز ان يسمى علما . فان كنا نجهل ذلك فلا بد ان تكون له علة خفية سيكشفها العلم بالجري على أسلوبنا لا بالخبط فى الخيالات .

فان قلت له : كيف يصدر العقل من المادة التى لا عقل لها ؟

اجابك : انك تغمط حق هذه المادة وتحقر من شأن خصائصها ، انك تحسبها غليظة ليس لها الا صفات سلبية ، وهي في الواقع ممتعة بصفات ايجابية ، فهي من اللطف بحيث لا يمكن تصورها ، ومن النشاط والحركة والحياة والعقل والفكر بحيث لا يبلغ اليه خيال . فهي تظهر غليظة جامدة في المواد الميتة ، ولكنها متى تركبت على شكل خاص ، وعلى نظام معين ، في مثل ماهي عليه في مخ الانسان واعصابه ، ظهرت فيه هذه الخصائص على اكمل مايكون (انظر صفحة ١٣٠ من هذا الكتاب)

فان قلت له : الا يدل مالدى الحيوانات وخصوصاً الدنيئة منها من الالهام على وجود عقل مدبر ألهمها مابه حياتها وقوامها ؟

اجابك : ان ماتسميه الهاما هو عادات موروثة ، ومعني هذا ان اسلافها اضطرتها أحوال البيئة للقيام على سنة خاصة لحفظ وجودها ، فأورثت هذه العادات ذراريها ، فصارت تأتيها بغير روية كأنها ملهمة بها ، وهي ليست كذلك .

فان قلت له : فلم لا يرث الانسان عاداته فيولد الطفل حاذقا لصناعة أبيه ؟

اجابك : لان الانسان لسعة عقله مدفوع للترقي فهو ممن لا يقف عند حد ، فجعلت وراثة الصناعات والعلوم في نوعه لا في آحاده .

* * *

هذا مثال من اجوبة الماديين وهي خلابة خداعة ، توهم من يلم بها في جملتها أنه فهم أسرار الكون ، وأحاط بقواه علما ، ويغفل عن ان هذه السفسطات كلها مبنية على عقيدة ايمانية ، لا تختلف عن أي عقيدة دينية .

تلك العقيدة هي زعمهم أن المادة قديمة أزلية أبدية ، متمتعة بخصائص ومقودة بنواميس تصل بالكون الى هذا الحد من الابداع والكمال .

فهذا القول اولا ليس من العلم الطبيعي ولا متنزل من اساليبه لان العلم لم يثبت ولا يستطيع أن يثبت ان المادة قديمة ، وليس في وسعه ان يقرر بأنها ممتعة بخصائص

ذاتية ترقي بها الى اقصي درجات الـكمال ، فربما كانت متنزلة من قوة أي انها حركة محضـة في تلك القوة ، (كما يقول بذلك جمهور الطبيعيين اليوم) ، وربما كانت تلك الخصائص المشاهدة في الـكون ليست خصائص تلك المادة ولـكنها قوة عالمية مالئة لهذا الـكون تنوّع كل ما تؤثر عليه وتذهب في ابداعه وترقيته كل مذهب.

فالقول بأبدية المادة وازاليتها وتمتعها بخصائص لاحدلها هو عقيدة ايمانية لاتفترق عن أية عقيدة بالله قديم متصف بكل صفات الـكمال ، تصدر منه جميع الموجودات على مقتضى حكمته العالية ، وعلمه الشامل . فالمادي والديني يستويان في الايمان بالغيب ايمانا لاحدله .

وانما الفرق الوحيد بين العقيدتين هو ان المؤمن يطلق على الموجود الاول كلمـة (الله) والمادى يطلق عليه كلمة (المادة) .

وكما ان المؤمن كلما آنس في الموجودات أمرا جديدا نسبه الي خصائص الخالق غير المتناهية ، فـكذلك المادى يعزوه الى خصائص المادة غير المتناهية .

فان عُيّر المتدين بأنه قائم علي أصل ليس له عليه دليل حسيّ ، لحق هـذا التعيير بالماديّ ، لانه قائم علي اصل ليس له عليه دليل تجريبيّ ، ولا عبرة بقوله انه يري المادة بعينيه ، ويلمسها بيديه ، لانه يُرّد عليه بأن هذه المادة الملموسة ربما كانت حالا من احوال القوة (كما يقول بذلك جمهور العلماء في هذا العصر) ، ثم هو مضطر للقول بوجود الاثـير ولم يره ولم يحس به ، وهو فوق ذلك يعـزو للمادة صفات ولم ير ملازمة تلك الصفات لها ، واستناده علي انه لم ير قوة من قوي الـكون الا ملازمة للمادة فهو وهم كبير . لانه لما كان لايستطيع ، وهو في حالته المادية العادية ، أن يدرك القوي المجردة بحاسـة من حواسه فهو لايحس بها الا مؤثرة على مادة . ولـكن هـل قصوره هذا يمنع من ان تكون تلك القوي موجودة بذاتها على حالة مجردة محضـة ؟ وهل من العلمية أن يتخذ الانسان من قصوره علما يبني عليه مذهبا يدعي انه هو المذهب الذي ليس وراءه مرمي لطالب حقيقة ؟

يدعي الماديون أنهم حريصـون في مباحثهم على اسـلوب الفلسفة الحسية التي

لاتسلم بغير المشاهــدة والتجربة ، فهل هم منه في شيء ؟ ليحكم بيننا هذا الاسلوب نفسه .

قال العلامة (ليتريه) وهو خليفة (اوجست كونت) واضــع اصــول الفلسفة الحسية في كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) :

« بما اننا نجهل اصــول الــكائنات ومصائرها فلا يجوز لنا ان ننكر وجود شيء سابق عليها اولاحق لهــا ، كما لا يجوز لنا أن نثبت ذلك . فالمــذهب الحسيّ يتحفظ كل التحفظ في مسئلة وجود العقل الاول لاقراره بجهله المطلق في هذا الشأن ، كما ان العلوم الفرعية التي هي منابع للمذهب الحسي يجب عليها أن تحترس من الحــكم على اصــول الاشياء ونهاياتها ، بمعني اننا ان لم ننكر وجود الحــكمة الالهية فلا نتعرض لاثباتها لاننا على الحياد التام بين النفي والاثبات » .

وقال الفيلسوف (روبينيه) في كتابه (الفلسفة الحسية) :

« يريد الفلاسفة الحسيون أن يبعدوا كل خيال أو توهم وان لا يعتمدوا الا على المشاهدة المحسوسة وأن يحذفوا من افوالهم كل الافتراضات التي لا يمكن تحقيقها » .

هذه هي اصول الفلسفة الحسية فهل الماديون منها في شيء ؟ هل منها الحكم بقدم المــادة وأبديتها ، و بعدم وجود عالم ارفع منها ؟ وهل منها الاعتماد على الافتراضات العلمية و بناء مذهب الحادي عليها ؟

أصغ اليّ لاتلو عليك ما يقوله العلم الحسي عن الوجود ومافيه ، وعما ندركه منه بحواسنا القاصرة ثم احكم بعد ذلك ان كان يحسن بنا اعتمادا على هذه الحواس المضلة ان نزهي بما نعلمه من هذه القشور المسماة بالعلم الطبيعي ، وان نبني عليها مذهبا الحاديا ندافع عنه بحماسة اهل القرون الوسطى ، وأن نصــد عن كل بحث جديد يؤتينا بحقيقة مجهولة مناقضــة لهــذه المقررات السطحيــة بحجــة انهــا قررت ان المــادة قديمــة وانه ليس وراءها مرمى .

قال العلامــة الكبير الرياضي الفلــكي الفرنسي (كاميل فلامريون) في كتــابه

(الموت وغامضته) المطبوع في اخريات السنه الماضيه(١٩٢٠)في صفحه ٦٥ الي ٦٩ قال :

« الانسانية تعيش في جهالة بعيدة الغور وهي لاتدري ان تركيبنا الجثماني الطبيعي لا يعرّفنا بحقيقة الواقع . فان حواسنا تخدعنا في كل شيء . والتحليل العلمي وحده هو الذي يؤتي عقولنا ببصيص من النور .

« من أمثلة ذلك انناالانشعر بشيء من الحركات الهائلة للكوكب الذي نحن عليه. فانه يظهر ساكنا ذا اتجاهات محددة: الي فوق وتحت ويَمنة ويَسرة الخ ومع هذا فهو يسبح في القضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلومتر في الساعة في تطوافه السنوي حول الشمس، وهي نفسها تنتقل في خلال اللانهاية السماوية بحيث ان خط سير الارض ليس خطا منحنيا مقفلا ولكن حلزونيا مفتوحا دائما ، وان كرتنا الهائمة على وجهها لم تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ وجدت الي اليوم .

« وفي الوقت نفسه تدور هذه الكرة علي نفسها دورة في كل اربع وعشرين ساعة بحيث ان ما نسميه (فوق) في ساعة من الساعات يكون (تحت) بعد اثنتي عشرة ساعة . واننا نجري في هذه الحركة النهارية بمعدل ٣٠٠ امتار في الثانية في خط عرض باريز و٤٦٥ مترا في خط الاستواء .

« هذا وكوكبنا الارضي تلعب به أربع عشرة حركة مختلفة فلا نشعر بواحدة منها - تى التي تمسنا من قرب كالمد والجزر للقشرة الارضية ، وهي ظاهرة طبيعية ترتفع معها القشرة الارضية دفعتين في اليوم تحت ارجلنا الى علو ٣٠ سنتيمترا ولا توجد أي علامة ثابتة تجعلنا نلحظ هذا الامر مباشرة . ولولا وجود الشواطيء لما ادركنا وجود المد والجزر في الاوقيانوس كذلك .

« وهل نشعر بالهواء الذي نستنشقه أو ندرك له ثقلا ؟ ان سطح جسم الانسان يحمل منه ما وزنه ١٦٠٠٠ كيلوغرام معادَلا بمثله من الضغط الداخلي . وما كان احد يتخيل ان الهواء ثقيل قبل (غاليليه) و (باسكال) و (تورسلي) . هذا ما يُشهدنا اياه العلم ، ولكن الطبيعة لا تشعرنا به.

« وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل . فالكهرباء تلعب فيه دورا لاينقطع ولكننا لانشعر بها الا وقت الاعاصير أي وقت اختلال التوازن بشدة .

« والشمس ترسل لنا على الدوام باشعاعات مغناطيسية تؤثرعن بعد ١٥٠ مليون كيلو متر على الابرة المغطسة مما لاتشعرنا به مشاعرنا . ولكن توجد اجساد حساسة لطيفة تشعر بوجود هذه التيارات الكهربائية والمغناطيسية .

« وعيننا لاتدرك مانسميه نورا الا بواسطة ذبذبات الاثير المحصورة بين ٣٨٠ ترليون ذبذبة في الثانية (أحمر متطرف) و ٧٦٠ ترليون بنفسجى (متطرف) ولكن الذبذبات البطيئة للاشعة الحرارية الحمراء المعتمة فمادون ٣٨٠ ترليون موجودة وعاملة في الطبيعة كما تعمل الذبذبات السريعة فيما فوق الـ ٧٦٠ ترليون للاشعة الحرارية البنفسجيه المعتمة غير المرئية لشبكية عيننا .

« واذننا لاتدرك مانسميه (اصواتا) الامنذ الذبذبة الثانية والثلاثين من الاثير فى الثانية للاصوات التى نسميها شديدة الى ٣٦٠٠٠ ذبذبة في الثانية النغمات الحادة .

« وانفنا لانشعر بما نسميه (روائح) الا عن قرب شديد وفى حالة عدد محصور من التصاعدات فقط . ويختلف شم الحيوانات عن شم الانسان .

« وغير ذلك فالواقع انه لايوجد في الطبيعة خارج حواسنا لانور ولاصوت ولا رائحة . فنحن الذين خلقنا هذه الكلمات لنعبر عما نحسه من تأثراتنا . فالنور شكل من اشكال الحركة كالحرارة . والا ففى الفضاء من النور فى وسط الليل على قدر مايوجد منه في وقت الظهيرة . اعني توجد فيهما اعداد متساوية من الذبذبات الاثيرية تخترق هذه اللانهاية السماوية . والصوت شكل آخر من اشكال الحركة ، وليس هو بذي حقيقة الا بالنسبة لعصبنا السمعى . والروائح تحدث من جزيئات معلقة في الهواء تؤثر على عصبنا الشمي .

« فهذه هي الثلاثة الحواس التى تصلنا ، ونحن في تركيبنا الارضي هذا ، بالعالم

الخارجي . وأما الحاستان الاخريان الذوق واللمس فلا تؤثران الا بالملامسة. وهذا شيء قليل ، وهو في كل الاحوال لا يؤتينا بشيء من العلم بحقيقة الواقع . فيوجد حولنا من الذبذبات والحركات الاثيرية أو الهوائية ومن القوي والاشياء غير المرئية مالا نراه ولا نحس به . هذه حقيقة علمية مطلقة و بديهة عقلية لا يمكن النزع فيها .

« فيمكن ان يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية لا تُري ولا تُلمس ولا تستطيع حواسنا ان تصلنا بها . انا لا أقول ان هذه الكائنات الحية موجودة ولكني أقول يجوز ان تكون موجودة ، وهذا التأكيد هو النتيجة العلمية المطلقة المعقولة للمشاهدات السابقة .

« فاذا تقرر وثبت بالدليل ان اعضاءنا الادراكية لا تكشف لنا كل ما هو موجود وانها تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا (لا تتس حركات الارض وثقل الهواء والاشعاعات والكهرباء والمغناطيس الخ) فلسنا نكون على شيء من التثبت إن فكرنا ان ما نراه هو كل الحقيقة ، بل نحن مضطرون للتسليم بضد ذلك .

« قلنا ان كائنات حية يجوز ان تكون موجودة حولنا . فمن الذي كان يحلم بوجود الميكروبات قبل اكتشافها فهاهي تتكاثر حولنا بالمليارات والدور الذي تلعبه فى حياة جميع الاجسام من الخطورة بمكان .

« فالمظاهر لا تكشف لنا الواقع . ولا يوجد الا حقيقة واحدة نستطيع تقديرها مباشرة هى فكرنا . والموجود الذى لا يمكن النزاع فيه فى الانسان هو عقله. هذه هى النتيجة التى تأديت اليها في مؤلفاتي السابقة ، وقد اعددت هذا المؤلف للتدليل عليها بوضوح اوفى » . انتهي

كل هذه النظرات الصادقة ، المبنية على العلوم المحققة ، أيقظت العقل من غفلاته ، وكبحت من رعوناته ، وكسرت من شرة ادعائه ، وفلت من حدة خيلائه ، وأرته رأي العين ، ان ما علمه من أسرار هذا الوجود ذرة لا تُدرك في بحر لجيّ ، أو هباءة لا قدر لها في هذا الاطلاق العالميّ ، وأن وراء ما أدركه منه من هذا الجانب الماديّ ، عوالم لا تنتهي الى مدي تقف عنده ، وكائنات لا تصادف في ترقيها تخماً تلتزم حده .

أدب عقلي بعيد الغور لم يتحل به الانسان في عهد من عهوده ، قبل هـذا الدور الأخير ، فقـد كان في كل طور من أطواره شديد الاعتـداد بمدركاته ، عظيم الثقة بمحسوساته ، الي حد انكر معه ماوراء حسه ، وهو غافل عن انخداعه لقصوره ، واستهزأ بكل مالايتفق مع علمه ، وهو جاهل بمبلغ غروره ، حتى ان من صرح من الناس بجهله ، فعل ذلك اما تواضعاً أو تصنعاً اما اليوم فقد أدرك الانسان جهله بعلم حسيّ ، وفهم قصوره بدليل ماديّ ، وهذا الادب كان من أعظم آثاره عليه ان غيّر وجهة نظرة الي الوجود فقد كان ينظر اليه من وجهة انه مجال ماديّ بحت ، تكفي في سبر غوره حواسه الخمس ، فـكان الوجود في نظره محدودا على لانهائيته ، مفهوما في جملته ، ولـكنه اليوم ينظر اليه من وجهة انه مجال غير محدود ، تعمل فيه قوي لايحيط بها عقل ، المادةُ وجه من وجوهها ، وليست أصلا لوجودها ، والقوانين التي تؤثر عليها ، مظاهر من مظاهر تلك القوي الـكلية تعمل في الـكائنات على نظام يناسبها ، لا أن تلك القوانين هي كل مافي الوجود من العوامل المؤثرة .

هذه الوجهة الجديدة من النظر ، باحالتها المادة الى قيمتها الحقيقية ، حقرت في عينه هذا الوجه المحسوس الوجود ، ونبهته لما وراءه من العالم غير المشهود ، فدبحثه الى ذلك العالم ولـكن لاعلى الاسلوب القديم من تسليم الخيال قيادة العلم ، ولـكن علي الاسلوب الجديد من المشاهدة والتجربة ، فبعد ان كان يقصر علمه الطبيعي علي هـذا المجال الضيق من عالم المادة الظاهرة ويعني بالطبيعة هذه الباحة الحرجة من مـدركات حواسه القاصرة ، اخذ يمد علمه الى مابعد هذا العالم المحسوس ويوسم من مدي ادراكه للطبيعة نفسها ، فلم يحصرها في هذه الدائرة الضيقة ،

هذا تطور بعيد المدى أحدث من النتائج في كل فرع من فروع العلم ما غير وجه الفلسفة ، وقضي علي قصر النظر قضاء لاقيام له بعده ، وقد عولنا في هذا الـكتاب ، على أن نقف الناطقين بالضاد على حقيقة هـذا التطور العظيم الذي يُعتبر بحق اكبر تطور سجله التاريخ لارتقاء الانسان من الوجهة الادبية ، دفعه لادراك ماوراء هذه الحجب المادية من العوالم العلوية ، فلم ندخر وسعاً في تصويره بكل دقائقه ، مستأنسين في ذلك بأقوال

مادة العلم أنفسهم، حتي اننا لا نعلم اننا وضعنا بحثا حوي من آراء العلماء والفلاسفة مثل ماحواه هذا المؤلف ، ولنا فى ذلك واسع العذر فان هـذا التطور العقلى من الخطورة والجلالة بحيث يتطلب المطالع عليه على كل وجه من وجوهه دليلا . ونحن لم نبخل عليه بهذه الطلبة فأكثرنا له من الادلة بحيث لايجد في نفسه حاجة الى المزيد .

واني باعلاني لهذا العهد الجديد في حياة الانسان العقلية ارمى ان أحدث فى ارواح الشرقيين وعقولهم نفس الأثر الذي أحدثه فى أرواح الغربيين وعقولهم .

ولست أقصد من قولي العهد الجديد للعقل البشري أن هذا الترقي الواسع النطاق وصل الى كل درجات العقول ، فان فى الناس بل وفي العلماء أنفسهم من لا يبالون بغير ما الفوه ولو سقطت السماء على الارض ، ولهؤلاء أشباه ونظراء في كل بلاد من بلاد العالم . ولقد تحطمت نظرية الانتخاب الطبيعى الذي بني داروين عليها مذهبه ولا يزال في الناس من يظنون انهم حلوا بها أسرار التطورات الحيوية الى درجة لم يبق معها ظل من شك ، بل فى الناس من لايزالون يقولون بالجوهر الفرد الذي لايقبل الانقسام، وهي النظرية التي وضعها ديموكريت ولوسيب منذ اكثر من الفي سنة، ويخيل اليهم انهم أدركوا سر الوجود ادراكا لايسمح لهم بالاطلاع على ماينفيه من المباحث الجديدة .

هـذه الطائفة تقمصت من روح الجمود مالايتفق مع روح كل باحث متثبت ، وصبغت العلم بصبغة الجبار المتمرد ، مع انه في الواقع معترف بنقصه ، ومتواضع في حكمه، واتخذت من بضعة الافتراضات التي اضطر اليها العلم للتعليل المؤقت ، ومن بضعة الوجوه من القوى العاملة في الكائنات ، ذريعة الى بناء فلسفة عرجاء خرقاء عمياء ، لحمتها وسداها قصر النظر ، والدعوي الباطلة ، والكلمات المقعرة .

ادعوا انهم تحرروا من ربقة الايمان بالغيب ، وماداروا انهم وضعوا في اعناقهم اغلالا من الايمان بالطبيعة ينوؤن بحملها ، وفي ارجلهم قيودا يرسفون فى سلاسلها ، وزعموا انهم ترفعوا عن العامة في القول باله خلق العالم بقدرته وارادته ، وماعلموا انهم تسفلوا الي القول بالهية المادة ونحلوها تخيلا انهم من القوى والقدر مالايمكن تحقيقه بحجة ناهضة، ولا يتأتي شهوده بتجربة حاسمة .

وخيل اليوم انهم بلغوا من بعد النظر ، وسعة العقل الى مايسمح لهم بأن يهزأو بأصحاب العقائد الجامدة ، ومافهموا انهم بوقوفهم في دائرة ما حصلوه من هذا القدر الناقص من العلم قد وضعوا علي أعينهم حجبا من الغشاوات ، وعلى عقولهم كسفا من الغباوات ، لاتسمح لهم برؤية شيء غير ماتخيلوه وجمدوا عليه .

ينظر أحدهم الى السماء ثم يرمي ببصره الي الارض ، فيخيل اليه انه يري عوالم وصل الى ابعد غاية من ادراكها ، فهو بناموس الجاذبية العامة وببضعة القوانين الطبيعية الكيماوية المعروفة وبأربع نظريات داروين المشهورة يحل جميع معضلات الخليقة ، ويدافع عنها دفاع الواضع لها ، فيصدق عليهم قول الفيلسوف (شوبنهور) حيث قال :

« كلما انحط الانسان في القوة العقلية قلت مساتير الوجود في نظره ، فكل شيء عنده يحمل معه تفسيرا لكيفية وجوده وسبب حدوثه » انتهى .

ومن أعجب العجب ان هؤلاء الجامدين يتبجحون بأنهم انما يستندون على العلم مدعين انهم اقرب الاقربين اليه دون الخلق .

فأي علم يَعني هؤلاء ؟ العلم يصرح بأنه لا يدري بداءات الاشياء ولا مصائرها ، فمن أين جاءهم العلم بما كان وماسيكون ، ومن أي مورد استقوا عقائدهم التي بنوا عليها هذا الجمود الغريب ؟

من شاء ان يعرف الجواب على هذين السؤالين ، ويعذرنا على هذه اللهجة القارصة ، فيطالع ما كتبناه في هذه الصحف القليلة الآتية ، والله ولي الكفاية .

فهرست الكتاب

صحيفه

صحيفة

(وقفة بين عهدين)

لم يتضح أثر العلم والفلسفة على حالتنا النفسية والعقلية مثل اتضاحه عليهما في هذا العهد الاخير . وهو دور نقابله بالبشر والترحيب لدلالته على نضج العقول لقبول أرق المدركات وتأهل النفوس للوصول الى أبعد الغايات ولكنه دور خطير الشأن لقيامه على هدم بناء قديم من المدركات والموروثات واقامة صرح جديد على انقاضه ، وعلى الاملاس من روابط تاريخية من الآداب والعادات والخضوع لحوافظ حديثة صاغها العقل الجديد على الطراز الذي رآه أصلح لشأن الجماعة الناهضة

هذا الدور من الانتقال الذي يضع فيه الانسان حداً بين الماضي والحاضر أو بين القديم والجديد يستدعي ضربا من ضروب الفوضى الفكرية ونوعا من أنواع التطرف والتناهي يجد فيه ذوو القلوب الصغيرة والابصار القصيرة مجالا للظهور بمظهر المجددين والاتسام بوسم الزعماء والمصلحين . وما الذي يصدهم عن ذلك وهم في وسط جمهور متعطش للجديد يظن كل نعيق يطرق سمعه من داع الى هوى صيحة ناصح حكيم يهيب به الى مورد عذب من موارد الاصلاح والتكمل ، ويخيل اليه أن كل هادم لاصل قديم عاملا من عمال العهد الذهبي المنتظر يرفع العقاب عن سبيل السالكين ويمهد الصعاب أمام المتسابقين ؟

نعم إن هذا الدور من أشد الادوار خطراً على كل مجتمع لما يختلط به الحابل بالنابل ويشتبه فيه الحق بالباطل ويفقد الناظرون وجوه التفرقة بين الجادين والهازلين وبين البانين والهادمين . وهو الدور الوحيد الذي يجد فيه الاباحي ممن أماتت الشهوات شعوره فرصة للتلبيس والملحد الذي طمس القصور نوره بهزة للتدليس . ويصادف فيه المعدم من الفضائل والمملق من الحقائق والعابث بالمدارك خلساً ينتحلون فيها وظيفة قيادة العواطف والميول . هذا الطامة الكبرى على الاخلاق الضرورية والرزية العظمى على الاصول العمرانية

لاجرم أن معالجة هذه الحالة السوأي من الصعوبة بمكان ، فان الدهماء في تهيامهم بالجديد الغض وتقززهم من القديم الرث يحسبون كل مناضل عن أصل عريق مهما كان محله من الصواب وضرورته للمجتمع من الجامدين على الموروثات العاملين على احياء ماقات وأصبح من الرفات . ويفترص هؤلاء القوم هذه الفرصة للحط من كرامته والتصغير مما يدعو اليه فيضيع صوت الحق في ضوضائهم وتعمي على الاكثرين وجوه التفرقة بين ماهو غث وما هو سمين وتجد النفوس المنحلة في وسط هذا النزاع مساغا الى الاندفاع في الفوضى الخلقية الفكرية فتتعرض لكل ما يستتبع ذلك من قوارع عمرانية

ليس الانسان بمحدود الادراك فيقنع بالدون من المطالب المعنوية ، ولا هو بالجسد المحض فيكتفي بالمقومات المادية ، فهو من لدن نشوئه على هذه الارض يتهالك على ادراك سر حياته ويتفاني في كشف النقاب عن وجه الكون ليقف على العلل التي عملت على ايجاده وتعمل في استمراره ، فهو مدفوع في هذا السبيل بدوافع معنوية لا تقل في قوتها عن الدوافع المادية التي تدفعه للبحث عن غذائه والعمل على بقائه . وان كاننا يضحي ذاته وافلاذ كبده وهو في أشد أدوار جهالاته واشتغاله بمقوماته في سبيل عقيدة روحية لهو كائن عريق في الروحانية ودخيل في الكائنات المادية

هل وقف اندفاع الانسان في هذا السبيل ، وهل قنع من الوجود بالحياة الصورية بعد كل ماحصله من المبدعات الصناعية والمقومات الجثمانية ؟

تقول نابتة الماديين عندنا نعم : لقد وضع العلم الطبيعي حدا بين عهد الخضوع للخيالات الفكرية بالامس وعهد الخروج عليها اليوم . فلفظت العقائد بالعقل الكلي المدبر وبالروح المستقل عن الجسم وبالوحي الخارج عن نطاق الحس الى عالم التصورات الوهمية . ولا يعدم كل من هؤلاء المجيبين أن يكون قد ادخر كتابا في الفلسفة المادية كتب في عهد الغرور العلمي للقرن التاسع عشر فهو يستملي منه ماينفثه بين معاشريه بينهم ويتناثر في كتاباته من أسلة قلمه

أما نحن فنقول ان الانسان العصري أكثر تدينا اليوم منه في أي زمن حتى في عهد

جهالته الاولى . نعم انه يترفع عن التعبد للصور الذهنية والاستخذاء للمدركات الخيالية بل انه قد أملس من جميع القيود الدينية ولكنه، بما فتح له العلم من مجالات النظر وكشف له البحث عن طرف من المجهول الضخم الذي يحيط به، قد حل فيه محل الخوف الطفلي من الافاعيل الطبيعية ولوع بإدراك الحقيقة الكلية ليس من نوع الولوع بكشف المساتير الوجودية بل من نوع الاندفاع للحصول على المقومات الروحية التي لاحياة له بدونها . فانه اذا كان بالامس قد عبد صوراً ذهنية لنيل ثوابها والهرب من شقابها فهو اليوم يطلب حقيقة مطلقة يشعر بأنه جزء منها يحن اليها حنين البعض الى كله ويندفع للوصول اليها اندفاع الشيء الى مقومه . فان لم يكن هذا من عاطفة التدين المعروفة فهو أرفع منها لامحالة

هذان موقفان متضادان وبما أن خصومنا يعتمدون على الفلسفة الحسية والعلم الطبيعي في الدعوة الى مذهبهم فسنجعلهما عمدتنا في هذه المباحث بل لامناص لنا من الاعتماد عليهما لانهما هما اللذان أوصلا الانسان الى هذه المنصة من المهد الروحاني الجدير بكماله وكل الفرق بيننا وبينهم انهم يعتمدون عليهما وهما في دور القصور والغرور ونحن نعتمد عليهما وهما في دور التكمل والنضوج

هل في الوجود حقيقة مطلقة يمكن ادراكها ؟ ان كانت فكيف يبحث عنها؟ هل وصل اليها أحد ممن كانوا قبلنا أو من معاصرينا ؟ ماهي الفلسفة ، وماهو العلم وما هي حدودهما وغايتهما ؟ لم استهوى المذهب المادي العقول وما هي العوامل التي أسقطته من الاوج الى الحضيض ؟ المثل الاولية والمذاهب التي تصدت لبيانها . اللامار كية والدارونية وغيرهما وما آلت اليه . موقف العقل حيال المسائل الكبرى ؟ أيمكن أن يتخلص الانسان من الحيرة ؟ أهناك معقول تسكن اليه نفسه وتزول به شكوكه ؟

هذه مباحث يخفق لذكرها كل قلب ويهيم بها كل عقل وتهتز لها كل عاطفة وهي من التسلط على تطورات الامم والتحكم في حالاتها النفسية في كل زمان ومكان بحيث يعد اغفالنا لها ونحن في هذا الدور الانتقالي من الجرائم الادبية . لهذا اجمعنا على ان

نخوض عبابها هنا في مقالات متتالية لعلنا نقوم ببعض ما يجب علينا لامتنا المحبوبة من هذه الوجهة و بالله التوفيق

***

(هل من حقيقة مطلقة يجب البحث عنها؟)

الانسان بما ركب فيه من قوى النظر والتفكر والاستقراء والاستدلال مضطر بحكم تركيبه المعنوي هذا لان يقف على معقول يطمئن اليه من كل ما يهيج فيه تلك القوي ويثيرها . فأول شيء هاجها فيه عند ما دفع به الي هذا العالم وسائل حفظ ذاته من العطب في هذه البيئة المحفوفة بالمبيدات فجره هذا البحث الى النظر في وجوه علاقته بالاشياء المحيطة به و بالوجود العام الشامل له ولتلك الاشياء فأخذ يسائل نفسه : كيف أحفظ وجودي بين هذه الحيوانات الكاسرة وكيف افترس غير الكاسرة منها لاجعلها من مقوماتي الغذائية ؟ و بأية وسيلة اتقي لفحات الحر المحرقة ونفحات القر القارسة؟ و بأية حيلة أمنع نفسي العوادي الطارئة من طغيان الأنهار و ثوران البراكين وهبوب العواصف ؟

فلما حصل الانسان على بعض ما يركن اليه من هذه الجهة هاجته الامراض الجائحة والاوباء الماحقة فطفق يسائل نفسه ثانية : ما هذه الكوارث المتكررة . ما هذه النوازل المتتالية هل من عامل خفي وراء هذه الظواهر يسلط على المبيدات لغرض يريده مني ؟ هل يمكن استعطافه واسترضاءه . وما هي مراضيه ومساخطه ؟

فلما وجد الانسان حصة صالحته من الوسائل الغذائية وذاق شيئاً من لذة الاجتماع وهناء الاسرة لفت نظره ذلك الموت الذي يهدده و يختطف ذويه ولا يستطيع دفعه فشرع يسائل نفسه ثالثة . ما الحياة وما الموت ؟ كيف يكون الانسان بالامس فارساً ومغاراً تهابه الضراغم في آجامها فيصبح اليوم جثة هامدة تنوشه الكلاب بأنيابها؟

هل كان جسمه آهلا بشيء خرج منه ما هو ذلك الشيء والى أين ذهب ؟

هنا ألمت بالانسان الحيرة أمام هذا المجهول الضخم فرفع بصره الى السماء كأنه يريد أن يسبر هذه اللانهاية ثم اداره فيما حوله واندفع يسائل نفسه أيضا : ما هذا الوجود ؟ أين انا منه ومن دفعني اليه ؟ ماذا أنا وأي شيء كنت قبل أن اوجدهنا ؟ الى اين اذهب بعد ان اموت . أأبيد كما تبيد الحيوانات والنباتات ام ينتقل شيء مني الي وجود آخر ؟ ماهو ذلك الوجود الآخر واين هو ؟

هذه النظرات من الانسان كانت أصلا لأديانه المتنوعة وينبوعاً لفلسفاته المختلفة . وهي التي دفعته للبحث عن الحقيقة المطلقة . وهذا التطلع منه كما ترى حال اضطرارية لاخيرة له فيها اندفع اليها بحكم تركيبه المعنوي . فليس هو بالكائن الذي ينظر ولا يفكر أو يفكر ولا يستدل ولا بالذي يقف من هذه القوي فيه عندحد ولكن أهنالك حقيقة مطلقة يمكن أن يدركها المتعقب لهذه المباحث أم هي حلم يصوره له الالم ويسوغه له حب الخلاص فيتأدي الى خيالات يتعزي بها حتي ينتهي وجوده علي أي حال كان !

أظهر لنا النقد الفلسفي أن الانسان اطمأن الى خيالاته آلافاً من السنين وأنه لا يزال على هذه السنة يتعبد لأمور تحيلها بداهة العقل ويحكم عليها بمجرد النظر بالبطلان مدعيا أنها حقائق مطلقة يجب عليه أن يأخذ بها وأن يحمل عليها غيره ولو بالقوة . ولكن هل تنفي هذه الحال وجود حقيقة مطلقة عن الوجود والحياة والموت يطمئن بها الانسان ويجري على سننها الي غاياته البعيدة من الكمال ؟

أما الحقيقة المطلقة فلا يشك فى وجودها عاقل مادام هذا العالم حتي في مذهب الذين يقولون بأن المحسوسات المرئية خيالات لاوجود لها الا فى وجدان الانسان مثلها كمثل الخيالات التى تتراءي له في النوم . فان هؤلاء مع ضنهم على الوجود بالوجود يسمحون به للانسان وليس في العالم من يقول بأن الانسان نفسه خيال أيضاً وان الكل عدم في عدم . ومادام هنالك شيء معين فلا بد من حقيقة مطلقة تتعلق به . فهل يمكن الوصول الي هذه الحقيقة المطلقة والخلاص من الخيالات التي يظنها

الانسان حقائق وليست بها ؟ وهل لنا مصلحة صورية أو معنوية في البحث عن الحقيقة

أما السؤال عما اذا كان لنا مصلحة في البحث عن الحقيقة المطلقة فلا محل له فاننا مضطرون بحكم تركيبنا المعنوي للبحث عنها كما قدمنا . فليس في العالم من يعيش ولا يسأل عن معني الحياة ولا من يموت ولا يسأل عن مصيره بعد الموت ولا من يري الوجود بعينيه ولا يسأل عن علاقته به . فالبحث عن الحقيقة المطلقة حاجة معنوية للانسان لامناص له من توفيتها

نعم في الناس من لا يعنيهم أمرها وهم في بعض ادوار حياتهم ولكنهم يدفعون عن هذا الاهمال غاليا حينما يضطرهم دور آخر الى التأمل في مصائرهم . ومع هذا فلا ننسي هنا ان فريقا من الناس يولدون أنعاما و يموتون أنعاماً

ثم اننا ان لم نكن مضطرين بحكم تركيبنا المعنوي للبحث عن الحقيقة المطلقة لوجب علينا أن نبحث عنها لمصلحتنا الذاتية لاننا في اندفاعنا وراءها نثير من قوي نفوسنا ما يرفعنا عن حضيض الحيوانية التي تنحط بنا اليها أجسادنا المادية . فان باتت تلك القوي العالية كامنة فينا ولم نصادف ما يصدنا عن الرتوع في حمأة الحيوانية من حنين سام الى مجهول ولهف عال على مستور ونطلع كريم لغاية بعيدة ارتكسنا بما نتورط فيه من ضروب المطالب الجسدانية الى حال هي دون البهيمية بمراحل

انا لا انكر أن في كل أمة طائفة من الشباب والشيب ارتفعوا بذرو من المعارف عن طبقة العامة وانحطوا بنقص علومهم عن درجة رجال العلم يتخيلون انهم قد وجدوا المعني الصحيح للحياة بالاباحة المطلقة والاملاس من كل قيد ولكنهم لايجرؤون على نشر مذهبهم خشية من أهل الاعتقاد وهم أصحاب الجمود في نظرهم فيموهون تعاليمهم بظواهر خداعة من الاصول التي تحترمها العامة منتظرين حلول ذلك العهد الذهبي الذي تسقط فيه جميع المعتقدات بغلبة الاصول المادية على الناس ويفوتهم أن الاصول العلمية اليوم بما كابدته من التحول الذريع في الخمسين السنة الاخيرة اكثر مناقضة لمذهبهم من الاصول الاعتقادية وهو التطور الجالي الذي سنحاول ان نعم

العلم به في مقالاتنا المتوالية هنا

فالانسان العصري اكثر غراما بالحقيقة المطلقة وأشد تقيا بها اليوم مما كان عليه في أي عهد كان . فما هي تلك الحقيقة المطلقة وبأي الوسائل تذرع للبحث عنها؟ أتكفيه تلك الوسائل لوجدانها . أم تبقى تلك الحقيقة المطلقة في نظره حلما من الاحلام لا يزال يمني نفسه بتحقيقه ولا يصل اليه ؟

***

(الحقيقة المطلقة ووسائلنا لادراكها)

ما هي الحقيقة المطلقة وما هي وسائلنا لادراكها ؟ أتكفينا تلك الوسائل أم هي حلم من الاحلام نمني أنفسنا بتحقيقه ولا نصل اليه ؟

الحقيقة المطلقة التي يهيم بادراكها الانسان هي ماهية ذاته وماهية الوجود الذي هو جزء منه . وهو لم يندفع في هذا البحث ارضاء لشهوة عقلية ولكن محفوزا بعوامل قهرية أساسها ماغرز فيه من عاطفة حفظ الذات وهي الغريزة التي يشترك فيها مع الحيوان الاعجم . ولكنه لانطلاق خصائصه العقلية عن القيود لم يقف منها عند الحد الذي وقف عنده الحيوان أي في الدائرة الجثمانية بل تخطى منها الي الدائرة الروحية وجعل همه حفظ وجوده المعنوي من الفناء اذ كبر عليه أن يكون حظه من الحياة مقصورا على سنين قليلة يقضيها في الكد والكدح ثم ينتهي أمره الى التلاشي والعدم . وقد جرته هذه النزعة الي النظر في مجموع الكون لتحققه بأنه جزء منه وأن لاسبيل لحل مسألة الجزء مع بقاء مسألة الكل غير محلولة

هذا الاندفاع من الانسان لادراك الحقيقة الخاصة بذاته و بالكون لا ينفك عنه مادام يتأثر بعاطفة حفظ وجوده وهو يدل على انه خلق ليعلو عن مستوي الحيوانية و يترفع عن حضيض الحياة المادية . وقد بدأ منه ذلك في جميع ادواره فضحي وجوده المادي في سبيل هذه النزعة العالية واحتقر لاجلها كل مطالب جثمانه الا الضروري

منها فصام نهاره وقام ليله وترهب وتبتل وكلف نفسه ماليس وجوده الصوري في حاجة اليه . فلو لم يكن هذا الكائن يحمل في سويداء قلبه نفحة خاصة حرمتها الطبيعة برمتها لما مال للترفع عليها والازراء بها واعتبارها فتنة له تصده عن مقاماته المعنوية الرفيعة ولما عمل على تقليل متاعه بطيباتها وتحرير نفسه من سلطانها

هنا يقول الماديون نعم حصل منه كل ذلك ولكنه من قبيل استنامته لاوهامه وخيالاته . ونحن نقول ليس هنا موطن مناقشتهم في هذا الامر فندعه للفصل الخاص به ولكننا نوجه نظرهم الي ان هذه النزعة السامية في الانسان ظهرت في فجر حياته الاولية أي في الحين الذي كان يعذر لو تلهى بمشتهياته المادية وانصرف عن كل عاطفة معنوية تقربه من الحيوانية . ونوجه نظرهم ايضاً الي ان هذه النزعة لازمته حيث كان من سطح الكرة الارضية وجماعاته في عزلة بعضها عن بعض واستمرت في جميع ادوار الانسانية وظهرت بأجلي مظاهرها في حياته العلمية حتى ان الماديين انفسهم لايتجردون منها فليس فيهم واحد يود ان ينزل الي مستوى البهيمية او يكره ان يكون فيه معنى يعلو به عن جميع الكائنات الارضية . وانما الفرق بينهم و بين خصومهم ينحصر في انهم يرون ان هذه النزعة الانسانية قائمة على وهم وخيال و يراها سواهم مرتكزة على خاصة نفسية وضعت فيه لتزعه عن الاخلاد الى الحياة الطينية وتدفعه للخروج من اسر الطبيعة الى حيث تعرج به روحه الى ارقي ما اعد له من المراتب المعنوية

بماذا تذرع الانسان لادراك الحقيقة المطلقة ؟ انه لم يجد بين يديه غير هذا البصيص من النور المسمي بالعقل . وماقيمة هذا البصيص الضئيل في وسط هذا البحر اللجي من الظلمات المحيطة به ؟ لاجرم انه تأدي به الي مدركات طفلية ساذجة لاتعدو قدره . فكانت كلما ازداد هذا البصيص اشراقا هذب من تلك المدركات ولطف منها . ولكن الى متي ؟ فهل بلغ هذا البصيص غاية قوته في عهد من عهود الانسان؟ وهل كفي او يكفي وهو في كمال اشراقه لبلاغ شأو هذه الحقيقة العليا ؟

ما زاد بلاء الانسان في مرامه هذا انه ما انتهي الى درجة عالية من هذه القوة

العاقلة حتي تبين بالدليل الحسي ان احـكامها نسبية وأنها ممنوة بالضلال وعاجزة بطبيعتها عن ادراك كنه الاشياء وانها مجموع تجارب منتزعة من المحسوسات المحيطة وان هذه المحـسوسات لاتتمثل لها بحقائقها بل بمايناسب قواها القاصرة للتأثر بهافيدرك حسه مادة جامدة وهي ليست غـير قوة متحركة حركة سريعة للغاية ويتـأثر بحرارة وكهرباء ونور وهي ليست غـير ذبذبات متكررة في بيئة مجهولة سماها الاثير . وتري عينه بياضاً ناصعاً وهو مركب في الواقع من الوان متعددة عثر عليها اتفاقا وسماها اصلية وقد تـكون مركبة هي ايضا من الوان أخري . ووقف بالتحليل علي عناصر اولية سماها بسائط وقد تـكون مركبة من عناصر ادق منها او هي كلها مظاهر مختلفة لعنصر واحد لاسبيل له الى ادراكه الخ الخ فتبين ان الاعتماد على القوة العاقلة في الوصول الى الحقيقة المطلقة من باب الاعتماد على غير معتمد.

هنا ألم به طائف من اليأس كاد يجزم معـه بأن الحقيقة المطلقة فوق متناوله . وانحازت جماعة فقررت ان محاولة ادراك تلك الحقيقة ضرب من العبث وان الاجدر بالانسان أن يعيش علي اكمل مايستطيعه من المدنية مكتفيا من العلم بما يخفف ويلات الانسانية ومن الفلسفة بما يمكنه من الاعتدال في مطالبه الجسمية

اذا لم تـكن في الانسان تلك النفحة الخاصة التي تزعجه دائمـاً عن الاخـلاد للحياة المادية لالتقي بنفسه في حضن هذه الفلسفة بعد تلك الهزيمة الـكبري . ولـكنه عاد فقلب المسألة على وجه آخر وأخذ يسائل نفسه : هل قواي الادراكية قاصرة على ماتحصله الى هذه المشاعر الـكليلة ؟ وهل انا والحيوان الاعجم سواء في كل المواهب المعنوية الامنجهة الـكمية ؟

هنا مزدحم الاراء المتضاربة ومقتتل الفلسفات المتناقضة ومعرض المذاهب التي استنفدت جهود النفوس الجادة في طريق البحث عن الحقيقة . ومجموع ذلك يجلي لك منظراً رهيباً من تهالك الانسان على رفع الستار عماوراء هـذه المظاهر الشهودية من القوي العالمية . ويصور جهاده العنيف المتواصل لرفع الحجب عن حقيقته الذاتية تارة بالاستنجاد بقوي مشاعره الجسدية وطوراً بالاستمداد من بداهات خصائصه العقلية فاذا لم تسعفه

هذه ولا تلك حاول أن يناجي روح الوجود نفسه لتكاشفه بأسرارها الخفية

هـذا الهم الناصب من الانسان استثار كل مواهبه النفسية واستجاش جميـع قواه المعنوية واستخلص من مادته زبدة طبيعته العلوية فلا مناص ونحن بصـدد هـذا الامن الضخم من اعطاء القـاريء صورة تفصيلية لمـا اجملناه ليكون على بينة من صحـة النتيجة التى نريد أن نجعلها ثمرة لمـا ننشره هنا من الفصـول المتتابعـة

***

(أدوار الانسانية في البحث عن الحقيقة)

أتت علي الانسان في البحث عن الحقيقة ثلاثة أدوار لامناص لنامن تتبع مواقفه فيها لانها تحصر وجوه تطوراته العقلية حيال اكبر مسألة لها الأثر الاول في رقيه الادبي وهي : دور الفطرة ودور الفلسفة ودور العلم

فأما في دور الفطرة فقد اعتمد الانسان في حل مسألة ذاته ومسألة الوجود على النظرية التى هدته اليها فطرته الدفلية وهو أن كل مصنوع لابدله من صانع وبما انه هو والوجود مصنوعان وقابلان للتأثر فلا بد من القول بوجود صانع لهما موثر فيهما . ولـكن الانسان ليس بالـكائن الذي يقنع بالـكليات دون الجزئيات ولابمن يكتفي بالقشر دون اللباب فأخذ يبحث فى ذلك الصانع وعن مكانه من الوجود وعن مبلغ قواه التي خلق بها الـكون وكنه صفاته التي هوعليها ولم يقف عند هذا الحدفأرادأن يعرف كيف خلق الـكائنات وعلى أى وجه يؤثر فيها وماذا كان يعمل قبل أن يخلقها والي أي حال تؤول هي بعد أن تؤدي دورها من الوجود الخ الخ فتأدي من ذلك كله الى ماينا سب مداركه في ذلك الدور فتخيله على صورته رجلا قوياً له عواطف وأهواء وأسكنه في أوسع ماعلمه من الغابات أو أرفع ماتصوره من الجبال ثم رأي ان ذلك يحط من قدره فأسكنه السماء وسلك في تقدير طبيعته وخصائصه طريقته فى تصور شـكله

فأني بكل مايؤثر على خياله وهو في جهالته الاولى فتخالفت الشعوب فى هذه المدركات على قدر ما بينها من التخالف في بيئاتها وحالاتها الاجتماعية وقواهـا التخييلية

تلا هذا الدور دور الفلسفة وهو العهد الذي وضع فيه الانسان حدودا للنظر وأصولا للمعقولات ورسم دوائر معينة للممكنات والمستحيلات وحاكم المدركات الى قوانين عقلية عامة وسمي مطابقة مدركاته لتلك القوانين ادلة وهو دور مختلط في بداءته بنهاية الدور الذي قبله فلا يمكن تعيين حده بفاصل فالمصريين القدماء والهنود والبابليين والصينيين منذ عدة ألوف من السنين مواقف في هذا المجال المقرر حصلوا منه على مدركات عاليه لايمكن الوصول اليها الا بالجري على أصول معينة في التأمل والوقوف عند حدود مقررة في النظر والتفرقة بين الممكنات والمستحيلات وما يصح أن يجعل من المسلمات العقلية ومالا يصح . الا ان الفلسفة لم تعرف بهذا الاسم الا فى الامة اليونانية القديمة . وان كان اليونانيون يعترفون بأنهم مدينون بمعارفهم الطبيعية والفلسفية لـكهنة المصريين

في هذا الدور تأسست الفلسفة لاعلى قضايا العقل فقط بل على العلم أيضاً فكان للفلاسفة اليونانيين الاقدمين قدم راسخة في كثير من فروعـه كالرياضيات والطبيعة والطب والفلك أخـذوهاعن المصريين وأشاعوها في بلادهم وزادوها موادا بابحاثهم وتجاربهم

فـكان أول شيء شغل بال الفلاسفة الاولين البحث في الاصل الثابت للكائنات أي الهيولى أو المادة الاولية وفي القوي التي تعمل في تحويلها وتغييرها ثم في اعـادتها الى تلك الهيولى وفي مصدر الحركة والابداع الفائض على الكائنات هذه كلها ابحاث طبيعية بحتة ولـكنهم لم يلبثوا ان تحولوا لدرس الانسان نفسه فخاضوا من الكلام على روحه ومصدرها وارادته وعقله وأخلاقه في لجج بعيدة الغور تأدوا منها الى هذه المسائل الضخمة وهي : هل من حقيقة مطلقة فوق هذه الحقائق النسبية . وهل من خير محض قائم بنفسه وراء هذه الخيور الجزئية والشرور الوقتية . وأعيان الاشياء أحقيقة هي أم وهمية الخ الخ

هنا انقسموا الي ثلاث فرق ففرقة رأت أن اصل الخليقة قوة أزلية أبدية حية مدركة واجبة الوجود أوجدت المادة بارادتها وشيأت الاشياء منها بقدرتها وخلقت النفس الانسانية وأسكنتها هذا الجسد لتبتلى فيه أمداً محدوداً ثم تبرحه الى عالم الارواح المجردة والنفوس الطيبة في عالم وراء هذا العالم.

وفرقة ذهبت الي أن للوجود أصلين قديمين متلازمين روحا محيطا بكل شيء علما ونافذاً على كل كائن حكما وهيولى أي مادة تنفعل لارادته وتقبل الصور التي يطبعها فيها . وقد نبغ في هذه الفرقة الفيلسوفان العظيمان افلاطون وتلميذه ارسطو . فكان يري الاول وجود عالم روحاني مثالي وعالم مادي وقرر بأنه ما من كائن مادي الاوله مثال يشبهه في العالم الروحاني . وذهب ارسطو الى وجود أصلين أيضاً ولكنه سماها الهيولى والصورة . الهيولى عنده هي الشيء القابل والصورة هي الروح المانح للقوة والحركة وقرر انهما متلازمان لاينفصلان فكل كائن مؤلف من هيولي وصورة أي من مادة وروح

والفرقة الثالثة زعمت ان أصل الوجود مادة أزلية فقط ورأت انه لاحاجة لفرض وجود روح قديم بجانبها . فالمادة عندهم أصل كل كائن وليست القوة العقلية نفسها الا مظهرا من مظاهرها التي لاتحصي . وقرروا بأن هذه المادة لاتقبل الفناء وانما تتغير صورها الي مالا نهاية تبعا لنواميس مقررة وقوانين ثابتة . وذهبوا الى ان القول بوجود أصل روحاني أوجد المادة أو شاركها في تكوين الكائنات وهم باطل ليس له قيمة فلسفية

أما الدور الثالث من أدوار الانسانية في تطلب الحقيقة وهو دور العلم فقد بدأ عند ماتقرر الاعتماد على المشاهدات والحوادث في تقرير الاصول الفلسفية لا على العقل وحده ولا على الظنون والنظريات التي تحسب من العلم وليست منه فى شيء . وكان الفضل في ايجاد هذا المهد للعلامة بيكون الانجليزي المولود سنة (١٥٦١) والمتوفي سنة (١٦٢٦) وقد كان لهذا المذهب اليد الطولى فى امداد الفلسفة المادية فوصلت به الي درجة أسقطت معها كل المذاهب المخالفة لها ووقر في النفوس

ان عهد القول بضرورة وجود القوة المدبرة أو العالم الروحاني قد زال زوالا لارجعة بعده.

في هذا الدور الذي دام نحو ثلاثة قرون نشأت المعارف الكونيةالعلياوتقررت الاصول العلمية الكبري وظهرت المذاهب في تعليل أصل الوجود وتفسير تنوعات الاحياء وصار للعلم سطوة على النفوس والعقول لم تكن له في عهد من عهود الانسان وانتقل السلطان من حفظة العقائد الي حملة المعارف وصغرت قيمة المعابد الدينية بجانب الجامعات العلمية وشعر الناس انهم قد دخلوا في دور نهائي من الحياة العقلية. ولكنهم ماعتموا ان رأوا أن هذا الدور قد كان توطئة لدور آخر انقلبت فيه اصول الماديين رأساً على عقب ونشأ دور جديد جمع جميع طيبات العهود السابقة وتنزه عن سيئاتها فكان هو الدور النهائي المنتظر.

وبما اننا تصدينا في هذه المقالات لاعلان هذا الدور الجديد للعلم والفلسفة فلا مناص لنا من الافاضة في بيان أطوار المذهب المادي وتتبع جميع مقرراته مع الدلالة علي وجوه قوتها وضعفها وانصافه الانصاف الجدير بالغيورين على الحقيقة ليكون ذلك أكثر تجلية للدور الجديد واشد ادلالا علي مكانته الرفيعة

***

(تاريخ المذهب المادي)

يصعد الماديون بأصل مذهبهم الي نحو القرن السادس قبل المسيح أي الي عهد الفيلسوف طاليس المولود سنة (٦٣٦ أو ٦٣٩) ويعتبرون من أتوا بعده من تلاميذه الى نحو ١٥٠ سنة اسلافا يمتون اليهم بأواصر وثيقة من القرابة المذهبية فيعدون من مشهوريهم (اناكزيماندر) و (اناكزيمين) و (اكزينوفان) و (بارمينيد) و (هيراقليد) و (امبيدوكل) و (لوسيب) و (ديموكريت)

أما نحن فلا نعرف وجها وجيها لاتقسابهم لهؤلاء الفلاسفة لا من الوجهة الاعتقادية لأنهم كانوا مؤمنين بالعالم الروحاني ولا من الوجهة المذهبية في تعليل الوجود فانها مما لايباهي بالاعتزاء اليها فقد كانت بأقاصيص العجائز أشبه . ناهيك بما تثمره التأملات في وقت كان فيه علم الطبيعة فى دور السذاجة الاولى.

فأما (طاليس) فقد زعم بأن المادة الاولية هى الماء فبتكاثفه وجدت الارض و بتمدده تولد الهواء والنار . قال الاستاذ (بانجون) في كتابه تاريخ الفلسفة : ان طاليس كان يعتقد ان كل تحول مادي لايكون الا تحت تأثير عوامل روحانية .

وأما (أنا كيزيماندر) فكان يقول ان المادة الاولية ليست الماء بل هى اللانهاية المطلقة أي الحالة غير المحدودة التى يخرج ويعود اليها كل كائن مقودا بحركة أزلية . وكان يري ان الكواكب آلهة سماوية الخ الخ.

واما (انا كزيمين) فكان يذهب الى ان المادة الاولى للاشياء هي الهواء وان مادة الاله نفسه من ذلك الهواء الخ.

واما (اكزينوفان) فكان يري ان اصل المادة الماء والتراب والهواء والنار مجتمعة قال الاستاذ (بانجون) المتقدم ذكره : كان اكزينوفان متدينا جداً ولكنه كان خالصا من الاوهام الدينية العامية .

واما (بارمينيد) فكان ينكر العدم والفراغ و يقول باستحالة وجود شيء من لاشيء ولكنه من الوجهة الاعتقادية كان من القائلين بوحدة الوجود اي بأن الله هو الكل وان الكل هو الله

واما (هيراقليد) فكان يقول اننا نري الاشياء ثابتة ولكنها في الحقيقة في حالة صيرورة مستمرة فتظهر وتزول ولا تثبت في وقت ما . قال الاستاذ

(بانجون) وكان هيراقليد يري ان فوق هذه الكائنات المتحولة عقلا الهيا ثابتا لا يتحول.

وأما (امبيدوكل) فمذهبه ان العناصر كانت ساكنة ومجتمعة بالشوق الذي فيها ثم تنافرت فحدث العالم من تجاذبها وتدافعها . وكان مؤمنا يعتقد بخلود الروح

وأما (لوسيب) فلم نعلم عنه أكثر من انه واضع نظرية الجواهر الفردة وقد يكون الواضع لها تلميذه (ديموكريت) ومؤداها ان المادة تتألف من ذرات صغيرة جدا متمتعة بحركة ذاتية فيها غير مستمدة من محرك خارج عنها وهذا المذهب أداه اليه مجرد النظر في الكائنات فلم يتكلف الا وصف ما تراه العين بدون النفوذ الى ماوراء ذلك . ولا يخفي ان في طي هذا الزعم دعوي عريضة وجهالة مطبقة فان الاكتفاء بالعين المجردة في تعليل الظواهر المتنوعة التى لاتقف عند حد والاكتفاء بحكم هذا الفكر الناقص يعتبر من التحكم الذي ليس وراءه مرمى ويكون مثل مرتكبه كمثل رجل من متوحشي الزنوج يقف أمام ساعة صغيرة فيعللها تعليلا سطحيا على حسب ما تهديه اليه معارفه الناقصة ويغفل عن سر حركتها الحقيقية ووظيفتها الآلية.

الا ان ديموكريت لم يك ماديا في معتقده فقد كان يقول بوجود الروح ويزعم انها مركبة من جواهر فردة كرية غاية فى اللطافة ويري ان الآلهة مركبة هي ايضا من جواهر فردة الا ان جواهرها اكثر حياة واقوي

هؤلاء هم الفلاسفة الذين يعتبرهم الماديون اسلافا لهم وقد رأيت انهم كلهم من المؤمنين . فان كان لابد من اعتزاء الماديين العصريين لاصل قديم فأولي الناس بهم السوفسطائيون الذين نشأوا بعد عهد ديموكريت فانهم هم الذين عمدوا الي تشكيك الناس في الآلهة وفى الاصول الاولية الاخري للفلسفة الرسمية . منهم (بروتاغوراس) المولود سنة ٤٤٠ قبل الميلاد فهو اول من قال بأن الآلهة لا يمكن اثبات وجودها بدليل

ثم نبغ بعده (كريتياس) فقرر بأن الآلهة ليسوا سوي مخترعات خيالية دعا

اليها الدهاة من محبي التسلط ليقهروا بها الشعوب لاحكامهم .

وكان من تعاليم السوفسطائية انكار الخير المطلق والقول بأن العدل والظلم من الامور الاصطلاحية . لذلك كان اسمهم مقرونا لدي معاصريهم بالتحقير والازراء ومحاطا بكل ضروب التشهير . ولكن النقد الفلسفي العصري اثبت ان الطعن العام في اخلاقهم وسيرهم كان لكفرهم بالآلهة وعدم اعتدادهم بالخيالات الاعتقادية.

اما هم في الواقع فكانوا اولى علم وحكمة واصول خلقية ولكنها مادية بحتة .

استمر الرأي المادي ماثلا في المعارف اليونانية يناهض الفلسفة الروحانية وتناهضه حتي تغلبت عليه نهائياً قبل المسيح بنحو ثلاثة قرون . وهي ما تغلبت عليه في ذلك العهد بحجة قاطعة ولا بتجربة حاسمة وانما بتشيع العامة لها وقصدهم بالسوء خصومها . والعامة في كل زمان ومكان ينفرون من كل فلسفة لاتشايع خيالاتهم الاعتقادية . فخلا الجو للمذهبي افلاطون وارسطو وكان الاخير اوفر حظا من الاول فانتشر في العالم النصراني محرفا وايده رجال الكنيسة واتخذوه عمادا للدين وتعصبوا له اشد تعصب حتي احرقوا بالنار كل من تجارأ على نقضه .

دام الحال على هذا المنوال الى القرن الخامس عشر حيث ظهرت باكورة الآراء الطبيعية المؤثرة على مجري المدركات الانسانية كالرأي القائل بأن الارض كرية وبأنها ليست مركزا للعالم بل هي كوكب حقير من الكواكب الدائرة حول الشمس وغير ذلك وتهيأت البيئة الفكرية للرأي المادى فظهر فى القرن السادس عشر بأشد قوة واكثر لألاء رافعا راية العلم ومعلنا على الاديان والمعتقدات حرب الفناء فلنقتبعه في هذا الدور بأكثر امعان ولنتعقب المعارك التى تشبت بينه وبين الفلسفة الروحانية فى الثلاثة القرون الاخيرة فانها كانت كمناوشات بين الطلائع انتهت بمعارك فاصلة فى النصف الاول من القرن الماضى كانت نتيجتها انتصاره ذلك الانتصار الباهر فان الالمام بهذا كله ضروري لاظهار العهد الفلسفي الجديد فى أكمل ماهو عليه من الجلال والجمال.

(الفلسفة في القرن السادس عشر)

هل القرن السادس عشر وظهرت بعض الآراء العلمية في الفلك والطبيعة فكان ذلك سبباً في ايقاظ الشكوك الكامنة في النفوس وتوليد الشبهات على الفلسفة الروحانية وكان أول مجترئ على احياء المذهب المادي الفيلسوف الايطالى (بطرس بومباتيوس) فنشر في سنة (١٥١٦) كتاباً ثار فيه على نظرية أرسطو في خلود النفس قال فيه : « ان القول بخلود النفس يقتضي اقامة الدليل على انها تحيا بدون جسد وهذا مستحيل »

وتلاه في القرن السابع عشر (بطرس بيل) المولود سنة (١٦٧٤) فقرر بأن الالحاد أفضل من التمسك بالاضاليل وقرر ان الامم تقوم وتحيا بدون الاعتقاد بالله وبخلود النفس

وفي سنة (١٧٤٥) نشر الفيلسوف الفرنسي (دولامتري) كتابا أسماه (التاريخ الطبيعي للنفس) قال فيه : « ان القول بوجود روح تقوم بدون جسم ضرب من الهذيان فالروح والجسم مرتبطان لا ينفصلان والمادة والقوة لاتنفك احداهما عن الاخري الا في الوهم . أما في الواقع فهما شيء واحد . وكل الافكار مصدرها الحواس فلو كان العقل جوهراً مستقلا لنا بقوته الذاتية وان كان الانسان معزولا عن الخلق . وهذا لم يحصل قط »

وفي سنة (١٧٧٠) نشر البارون (هولباخ) الالماني كتابه (نظام الطبيعة) قرر فيه ان كل شيء محصور في الطبيعة وأن كل مايتخيل وراءها وهم في وهم وأن ليس الانسان الا ثمرة القوي الطبيعية وأن ليست طبيعته المعنوية الا مظهراً من مظاهر طبيعته المادية . وقال ان الانسان لم يذهب في رفع نفسه عن مستوي الطبيعية لا مدفوعا بحبه لذاته وايثاره لمصلحته الشخصية . وأثبت ان العالم كله مادة وحركة وسلسلة أسباب ومسببات لاتنتهي عند حد . وأن المادة والحركة أزليتان . وقال ان ليس في

الطبيعة أمر عجيب الا للذين لم يدرسوها حق دراستها وان الحسن والقبيح اعتباريان في الوجود مثل النظام والاتفاق فيه.

وقال ان الذي يزعم أن النفس تحس وتفكر بعد الموت يلزمه القول بأن الساعة المحطمة لاتزال تعين الوقت بعد تحطمها كما كانت تفعل ذلك قبله

وظهرت في سنة (١٧٥١) أول دائرة معارف فرنسية وكان من أشهر كتابها (ديدرو) فكتب فى مؤلفه (المادة والحركة) ان ما نراه من خروج كائن حي من البيضة بواسطة الحرارة وحدها ينقض كل تعاليم اللاهوتيين ويهدم كل هيا كل الارض.

نقول ان (ديدرو) قال ذلك قبل أن يكتشف باستور الجراثيم الميكروسكوبية الحية التى توجد في كل بيضة ملقحة فظن ان البيضة الميتة مع خلوها من كل جرثومة حية يخرج منها فروج حي بالحرارة ليس الا.

وقال ان الروح ليس الا ثمرة التركب الجثماني وعلم النفس ليس الا فزيولوجية الاعصاب.

وقد تقدم هؤلاء الماديين وتأخر عنهم جمهور في كل أمة لم نشأ سرد أسمائهم لتشابه نظرياتهم ووحدة آرائهم

فلما جاء القرن التاسع عشر كانت العلوم الفرعية قد بلغت شأوا بعيداً من التقدم وأثمرت ثمراتها اليانعة فى الصناعة والزراعة ووسائل تخفيف الويلات الانسانية واستخدام القوى الطبيعية وحدثت من المخترعات ما أوقر فى صدور الخاصة و بعض العامة ان الطريق الذي يسير فيه العلم هو الطريق الصحيح المنتج وأن الفلسفة التى تستنتج من أصوله هي الفلسفة الحقة التي لايجادل فيها الاجامد أومفتون . وأن كل ما كان للأقدمين من الاقوال في الروح والملأ الاعلى انما هي الاخيالات لاتعدوما عليه الطوائف المنحطة فى سلم الارتقاء منها . وأخذوا ينتظرون حلول ذلك العهد الذهبي الذي تسقط فيه كل الاحلام المذهبية التي فرقت بين اجناس النوع الانساني ألوفا من السنين فيصبح الناس اخوانا امام الطبيعة يرتعون في خيراتها الي امد محدود ثم ينزحون من هذا الوجود

خالصين من ضوضاء الحياة وتكاليفها الى أبد الآبدين

وأما أنصار الفلسفة الروحانية بين موحدة وثنوية فأودعوا بقايا تلك النظريات العزيزة عليهم ثنايا قلوبهم تساورها الشكوك والشبهات وتنتقص من أطرافها الريب والاستشكالات بعد ان استنصروا لها القضايا المنطقية فأكدت والفلسفة العقلية فما أجدت . وأين تأثير المعقولات من تأثير المشاهدات ؟ بل أين سحر الالفاظ من سحر التلفون والتلغراف والآلات البخارية والابداعات الصناعية وفوائد المدنية ؟

بينما الناس على هذه الحال واذا بحادث جلل ظهر في عالم المباحث الطبيعية سنة (١٨٥٩) قضى على البقية الباقية من فلول الاعتقاديين الا وهو (مذهب داروين) في تعليل وجود الأنواع الحية ونشوءها بناموس الانتخاب الطبيعي وفي قيام الكائنات على نظام آلي بحت ليس فيه أثر لتدبير مدبر وتنظيم منظم . فكان ظهوره نهاية المعركة القديمة بين الماديين والروحيين فتفردت المادية بالسلطان وبلغ الغرور العلمي أقصى ما يمكن أن يصل اليه . ووقر في صدور العلماء ان مسألة الوجود الكبري قد حلت حلا نهائياً وان لم يكن ذلك في الاتجاه الذي يساير الانسان في مراميه الروحية وبعاشيه في أمانيه المعنوية . فقد ثبت لهم ان الانسان حيوان أراد ذلك أم لم يرده وانه فان ارضى عن حظه ام سخط ، وان الطبيعة في ماديتها وآليتها هي الاول والآخر والظاهر والباطن . وان الكائنات مقودة بنظام آلي محض لا أثر للتدبير العقلي فيه . وان الابداع الفائض عليها حال اقتضاه النظام العام وليس مقصودا من واضع وضعه ورمى به الي غاية معينة . وان العالم العلوى الذي تعبد له الانسان الوفا من السنين . وبذل في سبيله النفس والبنين ، وعمره بالآلهة والقديسين والملائكة المقربين لم يوجد الا في خياله . واما في الواقع فلا شيء غير هذه اللانهاية الآهلة بالاجرام المقهورة على حركتها الغافلة عن وجودها .

لماذا تأدي الناظرون في الكون الي هذه النتيجة ولم يتأدوا الى نقيضها ؟ فهل من طبيعة المباحث الكونية ان تجعل للفلسفة المادية هذا السلطان العظيم . وان تخذل

الفلسفة الروحية ؟ كيف يحدث ذلك تحت تأثير المشاهدات العلمية وتكاد تجمع عليه ارقي العقول الانسانية في ارقي العصور الفلسفية.

* * *

(لماذا يتأدي الباحثون في الكون الى الالحاد)

هل من طبيعة المباحث الكونية ان تنصر الفلسفة المادية على الروحانية حتى يشيع الالحاد كما نري في اكثر الطبقات المفكرة ؟ هذا بحث يحتاج للافاضة فنوجزه في كلمتين فنقول :

« الانسان لايطيق بحكم تركيبه المنوي أن يقف جامداً امام أي مجهول كان فهو مضطر الى تعرف كل مايؤثر علي حسه وعقله والى تعليله على قدر ماتسمح له به وسائله . فلما قذف به الي هذا العالم شرع في تعرفه مقهوراً بفطرته فنظر الى سمائه وأرضه وتأمل في حوادثهما معملا جميع خصائصه العقلية فآب من هذا الجهاد بمدركات تناسب حالته من السذاجة فنسب جميع الحوادث الى علل روحانية . الا أنه ليس بالكائن الذي يقف عند حد يصل اليه فما زال دائباً وراء استكناه المجاهيل حتي هدي الي كثير من العلل الطبيعية المباشرة فكان كلما أدرك علة ربط بها معلولها ورفع العلة الروحانية عنها مع الاحتفاظ بها كعلة أولية

فلما نشأت الفلسفة كانت العلوم الكونية قد كشفت كثيراً من العلل الطبيعية ، وأظهرت وجوه تسلسلها، فلم يبق أمام العقل الانساني غير العلة الاولية أو علة العلل وهو كما قلنا لا يطيق بحكم تركيبه أن يقف جامداً حيال أي مجهول كان. فوقف لادراك تلك العلة الاولية جل وسائله الفكرية غير قانع بأن يعتقدها ذاتاً ازلية ابدية واجبة الوجود. عالمة بكل شيء . وقادرة علي كل شيء . فأراد ان يعرف كيف هي أزلية ابدية وماذا كانت تعمل قبل أن تخلق الكون وعلى اي حال تحيط بكل شيء علما و بأي أسلوب تطبع ارادتها في القوي الكونية الخ فكان كلما اصطدم بهذه المسئلة استعصت علي

تحليله وامتنعت على الانطباق على دستوره . وأحس بوحشة لانطبق وسكينته المنوية ولقد كان هذا العجز مما يصح أن يزيده تقديساً لها واستسلاما لسلطانها لو كان تركيبه المنوي على غير ما هو أي لو كان ممن يكبر ما يجهله و يعظم ما لا يعلمه . ولكن ذلك فيه يضطره الى اعتبار كل ما لا ينطبق على دستوره باطلا لا يرفع به رأساً و يندفع للبحث عن غيره مما ينطبق على ذلك الدستور و يسايره.

نعم لاقي الانسان من انخداعه بهذا الدستور العقلي أشد ما يلاقي كائن من طبيعته . فكم مدرك اعتبره باطلا جريا علي دستوره هذا ثم انكشف له بعد ترقي ذلك الدستور أنه من الحقائق الساطعة . ولكنه محمول بدافع قهري للخضوع له ـ علي نقصه ـ لعلمه بأنه مصباحه الوحيد في ظلمات هذا الوجود ولا مناص له من الاستهداء بنوره في قطع مفاوزه والا تردى في كل عماية تصادفه.

نعم نشأت اللاأدرية في الفلسفة اليونانية بنبوغ الفيلسوف (بيرهون) في القرن الرابع قبل المسيح أي بعد ان بلغ العلم شأوا بعيداً في كشف المجاهيل الطبيعية. ومؤدي هذه الفلسفة الامتناع من الحكم على الاشياء لاستحالة ادراكها على حقيقتها بهذا العقل الناقص . فلم يأبه بها العقل الانساني لانه يعتبر نفسه فاتحا لمساتير الكون فلا يرضيه أن يقف هذا الموقف السلبي امام المجهولات التي تعترضه.

لما تكرر نكوص العقل عاجزاً عن ادراك وجود ذات أزلية يمكن تناول العلم بها على أسلوبه حول وجهه عنها لاول مرة الى النظر في علة العلل من وجهة طبيعية بحتة وكان ذلك في القرن الخامس قبل المسيح في عهد السوفسطائية الا ان الدهماء لم تقبل شكوكهم في هذه المسئلة فلم تنتشر فلسفتهم . واتفق ان جاءت الديانة المسيحية ثم اعقبتها الاسلامية فقويت العاطفة الدينية قوة لم تعهد لها من قبل فخضع العقل للدين مضطراً خمسة عشر قرنا وحدث ان اعتري اهل الدين في الغرب زهو بسلطانهم علي النفوس فأسرفوا في تقييد العقل وغلوا في مصادرة العلم فكان ذلك مدعاة لان يحمل العقل من السخائم على الاديان والمتدينين ما يدفعه للنهاية القصوي من مزاعمه ومطامعه . فلما استرد دولته في القرن الخامس عشر صرح على رؤوس الاشهاد بأنه ملي بحل جميع معاضل الكون من غير

أن يلجأ الي فرض يتعالى عن تحليله و يترفع عن تمحيصه . وعرض للناس جميع ما كان يرتطم به من الشبهات في وجود العقل المدبر والعالم الروحاني وصرح بأنها لاتقبل الحل. فذاع الحاد في رجال العلم واندفعوا يتلمسون الحلول التي تنطبق على دستور العقل فطبع العلم من ذلك الحين بهذا الطابع ودونت كتبه بهذه الروح . والذي زاد الامر شدة ان خصومهم وهم رجال الدين كانوا في اثناء هذه الدولة العقلية يزدادون جمودا على جمودهم وتشدداً في مصادرة البديهيات العلمية فوق سابق تشددهم فكان يقابلهم العلميون بتطرف يناسب تطرفهم حتي وقعت الطائفتان في نوعين من الغلو يتفقان شكلا و يختلفان موضوعا . فاذا كان الدينيون خيل اليهم في إبان دولتهم انهم حملة المعارف السماوية وخزنة الاسرار العلوية واولو الحل والعقد في الحظيرة القدسية فقد خيل للعلميين في هذا الدور بأنهم قد حلوا طلاسم الطبيعة وفكوا معميات الخليقة وكشفوا مساتير القوي الكونية وأنهم بلغوا الي مكانة من العلم تمكنهم من مفاجأة النواميس التكوينية وهي تصور الكائنات العالمية وانتهوا الى اوج من الفهم يسمح لهم بالحكم على بدآت الاشياء ونهاياتها حكما لا يقبل جدالا ولا يحتمل قيلا ولا قالا .

في هذا الدور بلغ غرور رجال العلم حداً زعموا معه ان الاحكام التي تصدرها دور التشريح ومعامل الطبيعة ومراصد الكواكب ومستنبتات الجراثيم الميكروسكوبية يجب ان تحني لها الرؤس خاضعة وان تعتبر حقائق مطلقة . وسري هذا الغرور من رجال العلم الى صغار طلابه والي مقلديهم من المحتكين بهم فخيل اليهم باطلاعهم على اثارة مما سطره زعماؤهم انهم اعرف بالكون وخوافيه، و بالعوامل التي تعمل فيه، من الدكاني بمحتويات دكانه، ومن المستبضع بما تحت اردانه .

ولكن هيهات ان يظل العقل محجوبا وراء هذه الكسف الكثيفة من الغرور وهو القوة التي لاتنخدع بخيال الا ريثما تستجم قواها لتأمله ولاتقنع بظاهر شيء الا قدر ما تجد الوسيلة لتبطنه . فهبت في النصف الاخير من القرن التاسع عشر من تحت هذا الحشو الرث من الادعاآت الباطلة والمزاعم العاطلة كمن هب من نومه عقب

كابوس اخذ بخنقه معلنة على رؤس الاشهاد ان ما خضعت له في مدى الثلاثة القرون الماضية من الآراء الفلسفية كان ادخل في عالم الوهم من كل ماخضعت له من الآراء الضالة في عهودها السابقة . وانها وهي في هذا الدور من الغرور كانت أبعد عن دستورها وأعصى لقانونها منها في أي دور كان قبله. وأنها الآن تنشد الحقيقة المطلقة على ما كانت عليه أول يوم وجدت فيه على هذه الارض

فما هي العوامل التي أيقظت هذه القوة العقلية من سباتها ودلتها على وجه غرورها ؟ وما هو هذا الوهم الضخم الذي تمثل لها في صورة الحقيقة المطلقة وأنجح في خدعها قروناً متوالية ؟ والى أي وجهة وات وجهها بعد هذه اليقظة النهائية ؟

***

(افاقة العقل من غروره العلمي)

قلنا أن القوة العقلية كانت قد انخدعت بظاهر من العلم مدة ثلاثة قرون ثم افاقت من غرورها في النصف الاخير من القرن التاسع عشر وتبينت أنها كانت متمسكة بما تسميه بالعلوم المحصة بما هو أدخل في الوهم من كل ماخضعت له من الآراء الضالة في عهودها السابقه . فبما ان هذا الانتقال الجلل يعتبر فاتحة عهد بلوغ الرشد للعقل الانساني حيث وضحت له معالم الطريق التي لايضل بعدها في اندفاعه وراء الحقيقة المطلقة فقد وجب علينا أن نستشهد لكل ماقلناه فى هذا الصدد بكلمة لعالم من اشهر المشتغلين بالعلوم الطبيعية وهو الاستاذ (جوستاف لوبون) فقد ألم بذكر هذا الحادث الجلل في كتابه (تحول المادة) فقال :

« كان اذا اتفق أن فيلسوفا من المنصرفين الى درس الموضوعات ذات الحدود المبهمة والنتائج غير المحققة كعلم النفس والسياسة والتاريخ قرأ منذ عدة سنين كتاباً

خاصا بالعلم الطبيعي كان يدهش من وضوح التحديدات فيه وصحة البراهين وضبط التجارب . اذ كان يري كل ما في ذلك الكتاب متسلسلا بعضه يشرح بعضا بدقة . وكان يري أن بجانب كل ظاهرة طبيعية مهما بلغت من التركب تفسيراً يبين غامضها.

« فاذا حمل حب الاطلاع هذا الفيلسوف نفسه على أن يبحث عن الاصول العامة لهذه العلوم المضبوطة الى هذا الحد كان لا يمالك نفسه من بساطتها المدهشة ومن عظمتها المهيبة . فيجد في قاعدة علم الكيمياء نظرية (الجوهر الفرد) الذي لا يقبل الانقسام ويجد في قاعدة علم الطبيعة (القوة) التي لا تتلاشي . ويري معادلات علمية ولدتها التجربة أو العقل المحض تشمل في نظريات صارمة العناصر الاساسية الاربعة للاشياء وهي : الزمان والفضاء والمادة والقوة . ويعرف ان جميع الجواهر الوجودية من الكوكب العظيم الدائر في الفضاء دوراته الولبية الابدية الى ذرة الغبار الحقيرة التي يظهران الرياح تذروها اتفاقا تخضع كلها لنواميس سائدة عليها.

« كان العالم يختال بهذا العلم الذي هو ثمرة جهود بذلت في عدة قرون . وكانت الوحدة والبساطة سائدة بفضله في كل مكان حتى ان بعض العقول المغرمة بالنظريات كانت تعتقد امكان تبسيط العلم اكثر مما هو عليه بعدم اعتبار شيء غير العلاقات الرياضية بين الظواهر الطبيعية فان هذه الظواهر كانت تترا آي لهم كأنها مظاهر لموجود واحد وهو القوة . وكان يخيل لهم ان تكوين بعض المعادلات الفرقية تكفي لتفسير جميع الحوادث التي تقع تحت المشاهدة . وكانوا يظنون ان الغرض الاول للعلم هو كشف نظريات جديدة تعتبر على الفور كأنها نواميس عامة يجب ان تخضع لها الطبيعة

« فكان الفيلسوف المتقدم ذكره لا يسعه الا الانحناء أمام هذه النتائج الفخمة معترفا بأنه ان عدم اليقين في البيئة العلمية التي هو فيها فمن الممكن الحصول على ذلك اليقين في مجال العلم المحض .

« كيف يعقل أن يشك في ذلك ؟ اما كان يري ان اكثر العلماء كانوا من الوثوق ببراهينهم بحيث لاتتطرق أخف الشكوك اليهم ؟ وأنهم بتسلطهم على التيار المتحول للاشياء وعلى فوضى الآراء المتغيرة والمتناقضة يسكنون هـذا الجو الصافي من الاطلاق الذي تتلاشى فيه جميع الشكوك وتشرق فيه أنوار الحقيقة النقية الآخذة بالابصار ؟

« كل نظرياتنا العلميـة العظيمة ليست بقديمة العهد جـداً لان تاريخ العلم التجريبي المحقق لايصـعد الي أبعـد من ثلاثة قـرون وفي هـذا العهـد القريب قربا نسبياً حـدث دوران مختلفان من أدوار التحـول في أفـكار العلماء .

« فالدور الاول كان دور الثقة والاعتقاد الذي تـكلمت عنه آنفـاً فـكانت فيه المقررات الفلسفية والدينية وهي قواعد مدركاتنا القديمـة عن الوجود تضمحل وتزول ببطء أمام المـكتشفات العلمية التي تتوالي يوميا ولا سيا في النصف الاول من القرن الماضي . فما كنت تسمع من يرفع عقيرته بشكوى . وكيف يشتكي من احلال الحقائق المطلقة محل أوهام المعتقدات القديمة ؟ فكان يظن مؤسسو كل علم جديد أنهم يحدون له الدوائر النهائية التي لايعوزها غير سد مافيها من الفراغ . وكان يخيل اليهم انهم متي أتموا بناء الصرح العلمي استمر هذا الصرح قائمـا على انقاض أوهام الزمان الماضي . فـكانت العقيدة العلمية في هذا الدور على غاية تمامها . نعم انها كانت تمثل الطبيعة غـير مبالية بالانسان والسماوات خالية من السكان ولـكنهم كانوا يؤملون أن يعمروها قريبا بأوثان جديدة ويقترحون على الناس عبادتها. وهي وان كانت أوثانا خشنة الا انها لاتخدعنا أبدا .

« دامت هذه العقيدة في المقررات الـكبري للعلم العصري حافظة لقوتها الي ان حدثت فى الايام الاخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى ان يكابد من الشكوك ماكان يعتقد انه قد تخلص منه أبد الآبدين . فان الصرح العلمي (تأمل) الذي كان لايري صدوعه الا عدد قليل من العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة

وصارت التناقضات والحالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد ان كانت من الخفاء بحيث يكاد لا تبلغها الظنون .

« أدرك الناس على عجل انهم كانوا مخدوعين وأسرعوا يتساءلون عما اذا كانت الاصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن الا فروضا واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور . فحدث اذ ذاك في المقررات العلمية مثل ما حدث قبل ذلك للعقائد الدينية عند ما شرعوا في مناقشتها الحساب . فسبقت ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان .

« لا مشاحة في أن الاصول التى كان العلم يختال بها اختيالا لم تزل كل الزوال بل هي ستبقى أمدا طويلا فى نظر الدهماء كحقائق مقررة وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها ولكنها قد فقدت كل ماكان لها من الاجلال في نظر العلماء الحقيقيين

« تلك المكتشفات التى نوهت بها آنفا قد كشفت اللثام عن الظنيات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة و بذلك دخل العلم نفسه فى دور من الفوضى كانوا يظنون انه قد سلم منه الى الابد . وأصبحنا نري أصولا كان يظن انها ذات قاعدة رياضية محققة صارت موضوع النزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها . وقد صدرت كتب على مثال الكتاب القيم المسمي (العلم والافتراض) لهنري بوانكاريه تؤتينا بالبرهان على ما نقول في كل صفحة من صفحاتها . فلقد أرانا هذا الرياضي المشهور اننا نعيش وسط الافتراضات والاتفاقات حتى في مجال العلوم الرياضية

« وقد بين لنا زميل كبير له فى مجمع العلماء وهو العالم الرياضي (أميل بيكار) في بعض مؤلفاته مقدار تنافر الاصول الحالية لعلم الميكانيكا وهو العلم الاساسي الذي يتطاول الي تصوير النواميس العامة للكون . واليك ماقال فى هذا الموضوع (في آخر القرن الثامن عشر كانت أصول علم الميكانيكا تظهر فوق متناول كل نقد وكانت أعمال مؤسسي هذا العلم تؤلف كتلة ظن الناس انها تكافح الزمان . ولكن

منذ ذلك الحين أخذ التحليل العلمي الدقيق يبحث القواعد التي يقوم عليها هذا البناء بمساعدة الزجاجات المكبرة وقد أفضى ذلك الي اننا نصادف الآن عقبات صعبة التذليل حيث كان لايتخيل أمثال العالمين (لاجرانج) و (لابلاس) الا بسائط وممهدات . ولقد شعر كل من تكلفوا تعليم بداءات الميكانيكا بعد قليل من التروي بعدم تنافر أصولها التقليدية اذا أريد عرضها على الناظرين)

« وقد أبدي الاستاذ (مانشى) في كتابه (تاريخ علم الميكانيكا) الذي نشره حديثاً رأياً من هذا القبيل فقال :

(ان الاصول الميكانيكية التي تظهر أبسط الاصول هي في الحقيقة من طبيعة تعتبر غاية في التركيب . فانها أسست علي تجارب لم تتحقق ولا يمكن تحققها . وعليه فلا يمكن بأية وسيلة من الوسائل أن تعتبر كلها حقائق مثبتة)

« اننا نملك الآن الآن ثلاثة مذاهب لعلم الميكانيكا يصم كل منها الآخر بالبطلان فاذا لم يكن واحد منها يستحق هذا الوصف فيمكن أن تعتبر جميعها ناقصة للغاية ولا يمكن أن تعطينا الا قليلا من التفسيرات المقبولة لحوادث الكون

« وقد كتب المسيو (لوسيان بوانكاريه) من جهة يقول (انه لاتوجد لدينا نظريات كبري الآن يمكن قبولها قبولا تاماً ويجمع عليها المجربون اجماعاً عاماً بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضي . وقد اتسع المجال للاجتراءات الممكنة ولم يظهر أن ناموسا من النواميس يعتبر ضروريا ضرورة مطلقة . فنحن نشهد في هذه الآونة اعمالا هي بالهدم أشبه منها باقامة بناء نهائي . فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسيساً ثابتاً صارت اليوم لدينا موضوعا للمناقشة . وقد رفض اليوم علي وجه عام الرأى القائل بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تفسيرات ميكانيكية فان أصول علم الميكانيكا نفسها صارت مشكوكا فيها . وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت عقائدنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التي اعتبرت أساسية الي اليوم)

انتهي كلام الاستاذ لوسيان بوانـكاريه . ثم ختم العلامة (جوستاف لوبون) مقالته بهذه الـكلمات :

« من حسن الحظ لاشيء اكثر ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضى فالوجود مفعم بمجهولات لانراها والحجاب الذي يحجبه عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي . فلايمكن عمل خطوة للامام الا بعـد تفـكك عري الآراء السابقة والاشـد خطرا على تقدم العقل الانساني هو تقـديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقـائق المقررة على نحو ماتفعله كتب التعليم والتطاول لوضع تخوم للعـلم ورسم حدود لمـا يمكن معرفته كما كان يود ذلك اجوست كونت » انتهي

فما هي تلك المكتشفات غير المنتظرة التي خلصت العقل من غروره وماذا كانت تلك الآراء الضالة التي كان يخبط في دياجيرها ثلاثة قرون ؟

***

(المسائل التي فتنت العقل)

تألبت على فتنة العقل في دور الغرور العلمي بضع مسائل كان لهـا سلطان كبير عليه لامناص لنا من النظر فيها لبيان وجوه اغتراره بها وما طرأ عليها فتسبب عنـه خلاصه من ذلك الاغترار

أول تلك المسائل مسألة المادة . شغلت هذه المسألة عقول الباحثين في الـكون من أقدم العصور فأرادوا أن يقفوا على الاصل الذي نشأت منه وعلي سر استحالاتها ونظام تفاعلاتها وعلي حقيقة القوي العاملة في تلك الاستحالات والتفاعلات التي لا تقف عند حد . فتخيل الفلاسفة الاولون ان أصلها الماء أو الهواء أو النار الخ حتى جاء لوسيب وديموكريت في القرن الخامس قبل الميلاد فوضعا نظرية الجوهر الفرد وقرروا بأن المادة مؤلفة من جواهر غاية في الصغر متمتعة بحركة ذاتية فيها وأنها أزلية أبدية ؛

فكان حظ هذا المذهب أوفر من حظ غيره شايعه فلاسفة كثيرون ممن أتوا بعد ديموكريت

فلما تغلب الدين على الفلسفة بظهور المسيحية والاسلامية لبث هذا المذهب حتي عهد النهضة الاوربية فكان هو المذهب الغالب على عقول المتكلمين فهذبوه على ما يناسب مداركهم فقالوا ان الجواهر الفردة متساوية في الحجم في جميع الاجسام وان بينها فراغاً تعمل فيه قوتا جذب ودفع . وان تلك الجواهر لاتعدم ولا تتجدد بل تتحول من جسم الي جسم حافظة لجميع خصائصها الذاتية وان تخالف الاجسام مع وحدتها في الاصل ناشئ من اختلاف عددها وتباين أوضاعها في كل منها. فالموجود المطلق هو هذه الظواهر الفردة لايشاركها في الوجود غير القوة اللازمة لها التى لايعقل أن تنفصل عنها.

سكن العقل الي هذا المذهب لبساطته . والعقل لايعنيه الا أن يرتاح الى تعليل به حاجته الماسة من فهم الكون الذي يحيط به لانه كما قلنا يستوحش بحكم تركيبه من الجهل ولا يطيق الصبر عليه . وأي تعليل أسهل وأبسط من هذا التعليل الذي أحال عالم الشهادة كله الي المادة المحسوسة وعالم الغيب برمته الي القوة اللازمة لها ؟ فالمادة تؤلف ظواهر الاشياء والقوة تعمل فيها وتذهب في ابداعها كل مذهب . فهل من حاجة بعد هذا الى خالق يصنع أصول الطبيعة وعقل أولى يدبر نظام الكائنات ؟

قال العلامة (بوخنر) الالماني في كتابه (القوة والمادة) « ان الذين يقولون بوجود قوة خالقة خارجة عن المادة وفوق الطبيعة خلقت العالم من ذاتها أو من العدم يناقضون الاصول الاساسية للعلم الطبيعي المؤسس على التجربة والواقع . »

وقال في مكان آخر من ذلك الكتاب :

« ان القول بوجود قوة مجردة عن المادة لامعنى له كالقول بوجود مادة بلا قوة . فان الناس ماسلموا بوجود قوي عاملة ممتازة عن المادة الا بتأثير الاوهام والجهالات

التي كانت سائدة في العصور المتقدمة ولكن العلم لايقبل اليوم مثل هذا الرأي »

فان قلت له ماهي تلك المادة التي تضعونها هذا الموضع الاعلي من الوجود المطلق؟ أجابك كما ورد في ذلك الكتاب :

« نحن لانعلم ماهي المادة في ذاتها كما لانعلم ما هي القوة في ذاتها أيضاً . ولا ندري ما اذا كانت المادة واحدة في أصلها أو مكونة من ستين أوسبعين عنصراً كيماويا معروفا . ولكننا نعلم علما يقينا بأنه يوجد شيء يجذب ويدفع ويقاوم ويتحرك وينتج ظواهر النور والحرارة الخ وانه في الوقت الذي يزول فيه هذا الشيء تزول هذه الظواهر معه . فهذا الشيء هو الذي نسميه مادة وتسمي الظواهر المذكورة مظاهرها وندعو سبب الظواهر القوي المشمولة في المادة »

فان قلت له فهل يعقل خروج الابداع مما لا يدري ما هو الابداع وبروز الحياة من الجماد الميت ؟ أجابك : بما ورد في كتابه المذكور بصفحتي ٤٥ و ٤٦

« ان ادراك هذا السر يقتضي أن تعرف ان قوي طبيعية بل وعقلية ملازمة لجوهر المادة هذه القوي العقلية تظهر في جميع الاحوال التي تجتمع فيهاشروط ضرورية في المخ أو في المجموع العصبي حيث تكون عناصر المادة متحدة على شكل خاص ومتأثرة بحركة خاصة فتنتج منها ظواهر الشعور والفكر كما تنتج منها في أحوال أخري ظواهر الجذب والدفع . ولقد قال شو بنهور : (اذا كانت المادة تستطيع أن تسقط فهي تستطيع أن تفكر) نعم هي في شكل حجر تسقط الى الارض وفي شكل عضلات تنقبض وفي شكل مادة عصبية حية توجد فيها خاصتا الشعور والفكر وتصير مدركة لذاتها »

لسنا هنا بصدد مناقشة الماديين في مذهبهم ولكننا نقول أي فرق يصبح بعد هذا من الوجهة الاعتقادية بين المادي المنزه عن الاوهام و بين المؤمن المغموس فيها في رأي بوخنر ؟ فاذا كان المؤمن يعتقد أن أصل الوجود قوة عاقلة أزلية أبدية قادرة

على كل شيء فالمادي (يعتقد) بأن أصل الوجود مادة أزلية أبدية قادرة على كل شئ .
واذا كان المؤمن قدبت فى أمر لايعلمه ولا يستطيع أن يخضعه للتجربة والمشاهدة فقد فعل المادي مثل ذلك وليس له بعد اعترافه بأنه يجهل المادة وقوتها من محيص . واذا كان المادي قد عز عليه أن يعترف لاصل الوجود بالحياة والشعور لعدم امكانه التوفيق بين هذه الخصائص و بين وجود الشر والنقص فى هذا العالم وسيادة النظام الآلي فيه . فان المؤمن قد أثبت لها هذه الخصائص لانه صعب عليه أن يعلل وجود هذه الخصائص نفسها في بعض مكنوناتها مع تجردها منها فأثلا . كيف يهب الحياة والشعور والعقل مالا حياة له ولاشعور ولا عقل ؟

وقد أدرك المؤمن مبلغ الشر والنقص في العالم وسيادة النظام الآلي فيه ولكنه رأي أن بجانب هذا الشر خيراً و بجانب النقص ابداعاً ومع تلك الصرامة الآلية حكمة فقطع بأن لاقتران هذه الاضداد بعضها ببعض حكمة لا يعلمها .

نعم قد علل المادي وجود الحياة والقوي العقلية والخير الجزئي والابداع الجملى وآثار القصد والحكمة في الخلقية بعلل طبيعية محضة فتنت كثيراً من العقول ولكنها لم تستطع ان تفتن العقول العليا فلا يزال الاعلام من حملة أسرار العلوم وخزنة كنوز المعارف ينصرون الايمان على الالحاد علي رؤوس الاشهاد

قلت لست هنا بصدد مناقشة الماديين فلأكتف بما قلت حتي يجئ موضع تلك المناقشة ولكني بصدد بيان اغترار العقل البشري بالحلول الوقتية لمسألة المادة وذهابه في الافتتان بها الى أقصى حد ولكن هيهات أن يسكن العقل لامثال هذه الخيالات فلم يلبث ان شك فيها جملة ثم حمل عليها وجها لوجه وكشف جميع نقائصها وابتغي نظريات سواها تناسب ماوصل اليه من المعارف الجديدة.

فلننظر لم شك فيها . وكيف حمل عليها.وما الذي بدا له من نقائصها . وماهي النظريات الجديدة التي استبد لها بها

(خلاف العلماء في أصل المـادة)

لم يلبث العقل اكثر من ثلاثة قرون بعد النهضة العلمية في غروره بمذهب الجوهر الفرد حتى أفاق من غشيته فنظر في هذا المذهب نظرات انتقـادية أحالته الى قيمته الحقيقية أي قذفت به الى عالم التصورات الخيالية . وبما ان هذا الرأي هو الاساس الذي يقوم عليه المذهب المادي وما ينتج منه من الدعاوي الطويلة العريضة نري من الحـكمة أن لاندعـه قبل أن نثبت للقارئين انه انهار على نفسه ولم يبق له من قيمة علمية . وأحسن أسلوب نتوخاه لذلك أن نترجم لهم ما كتب تحت كلمة « مادة » في دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية وهي آخر موسوعة علمية صدرت في اعرق البلاد مدنية وأبعدها عن التأثر بالعاطفة الدينية .

جاء في تلك الدائرة بعد سرد الادوار التي تقلبت فيها الآراء الفلسفية القديمة عن المادة :

« المسائل الاساسية التي تشغل الفلسفة والعلم في العصر الحاضر فيما يختص بالمادة يمكن حصرها فيما نعتقد في مسألتين . الاولى تتعلق على وجه خاص بالفلسفة والثانية تتعلق بالعلم

(المسألة الاولى) ماهي الاسباب الحقة التي تحملنا على القول بأن المادة وجوداً حقيقياً متحيزاً في الخارج ؟ وماهي قيمة المعرفة والاولى أن يقال ماهي قيمة الفـكرة التى نستطيع أن نكونهـا لانفسنا عنها ؟

(المسألة الثانية) ماذا نعلم عن طبيعة المـادة وعلى اى وجه نحاول ان نمثلهـا لانفسنـا ؟

« أما عن المسألة الاولي فالوفاق تام بين المذاهب المختلفة وذلك باجماعها على ان وجود المادة في الواقع ليس معروفاً لنا من طريق مباشر بل نحن انما نفرض وجودها فرضاً بدليل مؤسس على العلاقة السببية وذلك لاجل ان نفسر لانفسنا حدوث الظواهر

التي تؤثر على حواسنا . وعليه فمهما كانت الفكرة التي نكونها لانفسنا عن المادة فاننا لاندركها أبداً على ماهي عليه في الواقع بل على ماهي عليه بالنسبة لشعورنا و بالنسبة لعادات أو حاجات افكارنا »

ثم أخذت دائرة المعارف في مناقشة القائلين بالجوهر الفرد فقالت :

« ان هذا الرأي آخذ في الارتباك اذ عليه من جهة تفسير ظواهر الضوء والحرارة والكهرباء التي تضطر الباحثين للقول بأن الجواهر الفردة نفسها يجب أن تكون مشمولة في وسط مادي ليسد ما بينها من الفراغ . وعليه ايضاً من جهة أخرى أن يفسر تفسيراً ميكانيكيا قوى الجذب والدفع اللتين تنسبان اليها ولا يمكن ان يفرض لها وجود الا في الحركات الباطنة لاجزائها . فمذهب الجوهر الفرد ينحدر والحالة هذه على سفح دور وتسلسل لاينتهيان اذ يقال ماذا عسى ان تكون هذه الاجزاء من الجواهر الفردة ان لم تكن جواهر فردة أصغر منها ؟ وهذا الاثير الذي يتخيلون وجوده بين الجواهر الفردة ألا يكون مكونا هو ايضاً من جواهر فردة اذا كان مادياً ؟ فيكون الحد الذي زعموا انهم بلغوه يتقهقر بدون انقطاع امام الفكر الانساني . اضف الي ماتقدم التناقض الذي يحدث اذا نظر الى هذه المسألة من وجهة علم العالم الاولية من فرض وجود شيء متحيز لايقبل الانقسام وهو نفسه مع ذلك يقبل الانقسام الى مالانهاية له . من هنا تفهم ان القول بالجوهر الفرد لايظهر لأكثر من فيلسوف عصري الا وسيلة أو حيلة اوخيال يسهل التعبير عن نتائج التجارب و يخضعها للتحليل العلمي ولكنه لاعلاقة له بحقيقة المادة :

« اذا تصورت المادة على هذا الوجه لازمها أمران لايمكن ان يزايلاها وهما الحجم المتحيز والقوة فوجب ابدال هذا الرأي برأي اكثر بساطة . فقد قال « فارادیه » : ما مبلغ علمنا بالجوهر الفرد خارجاً عن القوة ؟ انك تتخيل نواة نسميها «ب» تحيطها بقوة تدعوها « م » اما انا فلا اعقل الا ان النواة « ب » تفني ولا يبقى الا القوة «م» وحدها .

وفى الواقع أي فكرة نستطيع ان نكونها لانفسنا عن تلك النواة المستقلة عن القوة ؟

« في هذا الرأي الجديد الذي لاينفرد به (فاواديه) بل يشاركه فيه (بوسكوفتش) و (كانت) و (كوشى) و (رنوفييه) وغيرهم يكون العنصر النهائي للمادة ليس هو الجوهر الفرد بل مركز القوي . فيكون كل عنصر مادي نقطة لاتقبل الانقسام تشع حولها في جميع الاتجاهات خطوط من القوى تصلها بجميع النقط الاخري للوجود وهي مع ذلك قابلة لان تنتقل من مكانها لتقرب او تبعد من اوعن تلك النقط . وهذا يفضى الى القول بأن تلك النقطة تتركب وتتحدد من مجموع الآثار التي تحدثها هي على المراكز الاخري ثم تعود فتتأثر بها . ولكن من الذي لا يري ان في هذا المذهب تكون الوحدة وعدم قبول الانقسام لكل مركز من القوي مما يستحيل تحديده بل ولا ادراكه ؟ أي فكرة نكونها لانفسنا عن مجموع هذه القوي التي يشملها كل مركز من تلك المراكز مع علمنا بأن أي قوة لاتتعرف الينا ميكانيكيا الا بالحركات التي تسببها او تمنعها او تغيرها ؟ الا يفضى هذا الى القول بأنه لايوجد فى الكون غير حركات عاملة وغير عاملة متعلق بعضها ببعض تستمر وتتطور على مقتضي قوانين رياضية ؟

« من هنا نشأ رأي جديد لايشتق من الحركة ولا من الميكانيكا يصح ان يسمي رأيا هندسيا وهو يحاول ان يحيل المادة الي حركة محضة اول من قال بهذا الرأى (ديكارت) ثم جدده في عصرنا هذا (وليم طومسون) الانجليزي و (لاسويتز) الالماني . فتكون المادة في رأيهم سيالا مصمتا متجانسا تتحدد الحركة فيه في وحدات ظاهرة . فالجواهر الفردة في هذا المذهب ليست الازوابع اوحلقات زوبعية هوامولتز كالحلقات التى حددت خصائصها حسابات (هولـتز) وحققتها تجارب (تيت) . ولكن الحركة فى سيال متجانس كل التجانس وغير قابل للانضغاط اي مصمت لا تكون حركته محسوسة كما اعترض بذلك (ستالو) اذ يكون كل فرق في مثل هذا السيال تصوري محض . ورغما عن انتقال كتلة منه بتأثير كتلة اخري فان حيزا مفروضا

يكون على الدوام شاملا مقداراً ثابتا من المادة لا يمكن تمييزه مطلقا عن المقدار الذي كان يشغله في اللحظة التي قبلها . وغيرذلك كما لاحظه (ماكسو يل) فان الذرة الزوبعية لاتكون صالحة بقصورها الذاتي لقبول كل تأثير يقع عليها

« وعلى هذا فجميع الفروض التي فرضت الآن عاجزة عن حل تناقضاتها الذاتية ولا تنطبق على الحوادث . فماذا نستنتج من هذه الحال غير ان مدركاتنا العلمية في المادة وهي تختلف في صلاحيتها كوسائل للترتيب والتحليل لانستطيع ان نزعم انها الحقيقة المطلقة . وهذه الفروض باعتبار انها لا وظيفة لها الا تسهيل وتعميم صفات وعلاقات الظواهر المحسوسة لا يمكن ان تكون حتما الا رمزية وخداعة كهذه الظواهر نفسها . فهي تخدم على حال من الاحوال لضبط الظاهر الوجودية بلغة اكثر وضوحا والتئاما مما تفعله مشاعرنا ولكنها لاتنفذ بنا الى ماوراء هذه الظواهر . على ان هذه اللغة نفسها مشتقة من لغة المشاعر ومتأثرة بحالة نسبية لا يمكن معالجتها . فنحن محكوم علينا والحالة هذه بجهل ماهية المادة على الدوام »

ثم ختمت الدائرة هذا الفصل بقولها :

« وعلى هذا فلو صرفنا النظر عن الرأي اللا ادري الذي هو عبارة عن رفض اي محاولة لتفسير الحوادث فيظهر ان الرأي الذي يرمي اليه جل علماء العلل الاولية هو ان المادة باعتبار اصلها تنحل كما فكر في ذلك (لبنتز) الى وجود روحاني طبيعته كطبيعة الوجود الذي يتجلى لوجداننا . والنقطة التي تبقى بعد ذلك غير محققة هي ان نعرف ما اذا كان الوجود هو مجتمع ذرات روحية متميز بعضها عن بعض اوانه كائن واحد لا يقبل الانقسام ومستمر على الدوام وانه العلة والمعلول العام »

هذا معرض آراء العلماء في المادة فهل يصح انه يبنى على واحد منها وخصوصا على القول القديم الرث بالجوهر الفرد مذهب يدعي انه يوصل الى ادراك سر الطبيعة والتحكم في معضلات الخليقة ؟ فلننظر الآن فيما جد من الآراء في المادة بعد ظهور دائرة المعارف اي في العشرين السنة الاخيرة

(المباحث على المادة في القرن العشرين)

ماذا جد من المباحث عن المادة في العشرين السنة الاخيرة ؟ أمر جلل وهو القول بتحليلها واحالتها الى قوة . المسئلة هذه المرة ليست مسألة كلامية ككل ماسبق بل عملية تجريبية ضاق معها الخناق على المذهب المادي حتي أصبح لايجد له متنفساً الا في رؤوس الذين يجمدون على النظريات التي توافق أهواءهم وان خالفت العقل والحس معاً

قال الطبيعي (جورج بوهن) في رسالة له أسماها (تطور المادة) :

« ان عقيدة عدم تلاشي المادة احدي العقائد القليلة التي اخذها العلم العصري عن العلم القديم بدون أن يغير فيها شيئاً . فمن عهد الشاعر الكبير (لوكريس) الذي جعلها اساس فلسفته الي (لافوازليه) الخالد الذكر الذي أقعدها على قواعد اعتبرت أبدية لم تكابد هذه العقيدة أي تزعزع ولم يفكر أحد في ان يجادل فيها . فاستحق الدكتور (جوستاف لوبون) لقباً من المجد لانه أول من هاجم هذه النظرية التي يسميها (عقيدة) وتوصل الى اسقاطها في سنين معدودة »

ونحن بدل أن نأخذ تاريخ هذا الاكتشاف الضخم عن العالم (جورج بوهن) نأخذه عن مكتشفه نفسه فنترجم لما من محاضرته التي القاها عن اكتشافه ذلك في سنة ١٩٠٧ ونشرها في كتاب أسماه (تولد المادة وفناؤها) قال :

« أقص عليكم حديثاً عجيباً غريباً لم يكن يحلم به العلم منذ عشر سنين . حديثاً عن قطعة من أية مادة لتكن حجراً تصدمونه في طريقكم اوورقة موضوعة أمامكم اوقطعاً من المعادن التي تتداولونها كل يوم

« كان يعتقد العلم في الزمن الحالي ولا يزال قوم يعتقدون أيضاً ان المادة تتألف من عناصر جامدة لايعتريها العدم وجدت في اصل الاشياء وتبقي في خلال

جميع تطوراتها بقاء سرمديا . فكانت الكيمياء تقول لا يفني شيء . وكانت على عرق مما تقول لان المادة كانت رغماً عن كل الاستحالات التي تتكبدها تظهر انها حافظة لوزنها الاول.

« ولكن العلم يعلمنا شيئاً آخر اليوم . انه يرينا المادة مركبة من مجموعات صغيرة تشبه المجموعات الشمسية مؤلفة من عناصر يدور بعضها حول بعض بسرعة عظيمة جداً وهي لا ترى ثابتة في حسنا الا بسبب تلك السرعة المفرطة . ويقرر لنا أن الجوهر الفرد مستقر قوى ضخمة لاتعد القوي التي تستخدمها صنائعنا بجانبها شيأ يذكر وينتظر أن تنتفع بها تلك الصنائع في يوم من الايام ويعرفنا أيضا ان المادة وهي مستودع حياة مركزة لها حس يجعلها تتغير بأخف المؤثرات والطفها . ويقول لنا أخيراً بأن المادة ليست ابدية بل هي خاضعة للناموس الحتم الذي يقضي على جميع الكائنات بالفناء

« انا لا استطيع ان اصل الي غور بعيد من هذا الموضوع في ساعة واحدة فلا كتف في هذه المحاضرة بأن أبين لكم بعض نتائج المباحث التي أتتبعها منذ عشر سنين في موضوع تحليل المادة وقد فصلتها في كتابين نشرتهما حديثا

« هذه المباحث التي كانت نتيجتها الاساسية غير المنتظرة منذ سنين قليلة اثبات ان المادة ليست غير قابلة للزوال قد انتشرت بسرعة في جميع المعامل العلمية (تأمل) وبعض قضايانا عنها مما اعتبرت متطرفة عند ماقررناها لاول مرة بدأت تكون اليوم من الامور المألوفة وان كانت لا تزال بعيدة عن انتاج كل النتائج المرجوة منها . ومتى شاعت هذه النتائج فستؤدي الي بناء صرح علمي يخلد الى الابد»

فاليكم الاصول الاساسية التي اجتهدت في تجليتها معتمدا على تجاربي الخاصة :

أولا — المادة التي كان يظن انها غير قابلة للزوال تتلاشى ببطء بالتحلل المستمر للجواهر الفردة التي تكونها

ثانيا — متحصلات تحليل المادة هي مادة وسطي بخصائصها بين الاجسام القابلة للوزن و بين الاثير غير القابل للوزن اي بين عالمين كان العلم قد فصل بينهما فصلا نهائيا الي اليوم

ثالثا — المادة التى كانت تعتبر قبل اليوم جامدة لاتعطينا غير القوة التي تأخذها من سواها هي على العكس من ذلك مستودع عظيم للقوة ـ القوة الباطنة للجواهر الفردة ـ التي يمكن أن تنفقها بدون أن تستعير شيأ من الخارج

رابعا — اكثر قوي السكون كالكهرباء والحرارة الشمسية على وجه خاص هي من القوة الباطنة للجواهر الفردة التي تخلص في اثناء تحلل المادة

خامسا — القوة والمادة شكلان مختلفان لشيء واحد فالمادة هي الشكل الثابت للقوة الباطنة للجواهر الفردة والحرارة والصوت والكهرباء الخ هي الاشكال غير الثابتة لتلك القوة

سادسا — اننا بتحليل الجواهر الفردة أي بصرف المادة عن حالتها المادية لا نعمل غير تحويل الشكل الثابت للقوة المسمى مادة الى أشكال غير ثابتة تسمى كهرباء وضوءاً وحرارة الخ . فالمادة والحالة هذه تستحيل الى قوة بحالة مستمرة

سابعاً — ان قانون التطورات المتعاقبة الذي يطبق على الكائنات الحية يطبق كذلك علي الاجسام البسيطة فالانواع الكيماوية كالانواع الحية ليست ثابتة بل قابلة التغير

ثامناً — القوة ليست أعصى على عوامل التلاشى من المادة التى تنتج منها

« فعلم الامس كان مؤسساً على أبدية المادة ولكن علم الغد سيتأسس على قبولها للفناء وسيكون غرضه الاول ايجاد وسائل سهلة لزيادة انحلالها ووضعه بذلك تحت تصرف

الانسان قوي يكاد لا يكون لها حد »

ثم بادر الاستاذ بحل هذه الشبهة وهي : اذا كانت المادة في ذاتها لاشيء غير القوة فكيف نحس بها جامدة ؟ فقال :

« قد عملت تجارب في المعامل الكهربائية المائية فأثبتت أن عموداً سائلاً قطره سنتيمتران اذا اسقط في انبوبة من علو ۰۰ ه متر فلا يمكن خدشه بضربة شديدة من سيف قاطع . اذ ترى السيف يقف على سطح السائل كما يقف اذا صادف حائطاً . واذا كانت سرعة عمود السائل اكثر فلا تستطيع قذيفة مدفع ان تخترقه . فاذا قذف شريط من الماء ثخنه بضعة سنتيمترات بسرعة كبيرة يصبح أمام قذيفة المدفع في مناعة الطبقة الفولاذية لسفينة مدرعة فلا تستطيع أن تخرقه .

« فاذا أعطينا الماء المنصب شكل زوبعة كان لدينا صورة من جزئيات المادة وتفسيراً مرجحاً لصلابتها . وبذلك نفهم كيف يصير الاثير اللامادي مادياً جداً اذا استحال الى زوابع متمتعة بسرعة كافية . ونفهم من هنا كذلك ان هذه الحركات الزوبعية لو بطلت لفنيت المادة لوقتها وعادت الى أصلها في الاثير »

هذا ماقاله الاستاذ (جوستاف لوبون) في مقدمة محاضرته فلننظر في المقالة التالية كيف سلك في تحليلها وماذا رأي من أطوار استحالاتها

* * *

(كيفية تحليل المادة)

ذكر الاستاذ « جوستاف لوبون » كيفية تحليل المادة في الفصل الخامس من محاضرته كما ورد في كتابه « تولد المادة وفناؤها » فقال :

« علينا الآن ان ندرس كيفية تحليل المادة فنقول :

« حدثت تجارب عديدة جداً لا يمكن التشكك في قيمتها أثبتت ما كنت انا اول مقرر له من أن الجواهر الفردة المادية التى كانت تعتبر في الازمان السالفة ثابتة على حالتها

يمكن ان تتحلل اما من ذاتها أو تحت تأثير فواعل مختلفة . وان متحصلات هذا التحلل متشابهة في جميع الاجسام سواء أكانت متولدة من نقطة انصراف الكهرباء من فقاعة كروكس باشعاع معدن موضوع تحت تأثير النور أم بتحلل جسم اشعاعي مثل الاورانيوم والتوريوم والراديوم .

وعليه فمتي أريد بحث تحلل المادة فلتنتخب الاجسام التى تكون اكثر قبولا لظاهرة التحلل من غيرها سواء أكانت فقاعة كروكس أو أي معدن يكون في حالته بحيث تصرف منه الكهرباء وهو تحت تأثير تيار مسلط عليه من ملف كهربائي . والاسهل ان يستعمل لذلك مركبات من أجسام اشعاعية كأملاح التوريوم أو الراديوم . وهناك اجسام تتحل بالنور أوغيره تعطي النتائج بعينها ولكن بما أن تحللها أبطأ جداً من الاجسام السابقة فتكون ملاحظة التحلل فيها أشد صعوبة .

« وقد شوهد أن المتحصلات المختلفة التي عرفت الى الآن من تحلل المادة يمكن أن ترتب في هذه الرتب الست وهي : جزئيات متطايرة و يونات سالبة و يونات موجبة والـكترونات واشعة اكس واشعاعات مشابهة لها « اليون يطلق على كل من العنصرين المتحللين من جسم واحد بتأثير الكهرباء . والالـكترون هو الجزيء المنحل من المادة حاملا لـكهربائية سالبة أو موجبة »

« كمية الجزئيات المتطايرة من الاجسام في أثناء التحلل تختلف تبعاً لاختلاف تلك الاجسام فهي بالنسبة لغرام من الاورانيوم والتوريوم ٧٠٠٠٠ في الثانية وبالنسبة للراديوم مئة مليار كما اثبتته حسابات مجربين مختلفين .

« اذا قرعت الاجسام القابلة للتألق بجزئيات المادة المتحللة أضاءت . فعلى هذه الخاصة أسست « السبينتاريسكوب » وهي آلة تجعل التحلل المستمر للمادة مرئياً لاعين أبعد الناس عن التصديق . وهي تتركب من صفيحة من كبريتور الزنك مركب عليها ابرة صغيرة غمس طرفها في محلول من جسم قابل للتحلل من ذاته . فاذا نظر الي تلك الصفيحة بالعدسة الـكبيرة فيري حدوث مطر من شرارات صغيرة ناتجة من تصادم الجزئيات المتحللة . عندي أنا واحدة من هذه الآلات وهي لاتزال منذ أربع سنين

تحدث امطاراً من الشرر ناتجة من تحلل عشر مليغرام من برومور الراديوم مثبت في طرف الابرة .

« قد ذكرنا فيما قلناه هنا كلمة (مـلايين الجزئيات (التي يستطيع أن يبثها في مدي عدة أجيال ميليغرام واحـد من جسم اشعاعي) ومثل هذا العدد يثير دائمـاً نوعاً من قلة الثقة لدي السامع لاننا لم نتوصل لان نصور لانفسنا الصغر المتناهي للعناصر المادية . ولـكن هذا الاستبعاد يزول متى شاهـدنا ان المواد العادية قابلة لان تمكث عدة سنين بدون أن تـكابد أي تحلل وهي مع ذلك عرضة لتصريف جزئيات كثيرة منها يـهل الحس بها بواسطة الشم ولـكن لا يستطيع أن يقدر ذلك الفقد فيها أشد الموازين حساً .

« وقد عمل المسيو (برتلو) فى هذا الموضوع مباحث مفيدة فجرب ان يحدد الفقد الذي تـكابده اجسام ذات رائحة قوية جـداً من التي تقل فيهـا قوة التطاير والشم اكثر احساسا بمـا لا يقدر من الميزان اذ انه يستطيع كما قرر ذلك المسيو برتلو أن يشعر بالنسبة لبعض الاجسام كاليودفورم مثـلا بوجود جزء من مئة مليون جزء من المليغرام»

« وقد توصل بتجارب علي هـذا الجسم الى هذه النتيجة وهي ان الغرام من اليودوفورم يفقد جزءاً من مئة من الميليغرام من وزنه في السنة أي انه يفقد مليغراما واحداً فى مئة عام رغما عن انه يصعد منـه على الدوام تيار من الجزئيـات ذات الرائحة في كل الاتجاهات . وأضاف المسيو برتلو الى هذه التجربة قوله انه اذا استعمل المسك بدل اليودفورم كان الثقل المفقود أقل كثيراً مما مر (قد يكون ألف ضعف) فيقتضي لتصريف المليغرام منه مرور مئة الف سنة.

« السرعة التي تتطاير بها جزئيات المادة وهي تتحلل تبـلغ من ثلاثين الفا الى ثلاث مئـة الف كيـلو مـتر في الثانية الواحـدة . وقد يظـهر انـ من الصعب جـداً قياس سرعــة أجسام تدفع بهـذه الشدة ومـع ذلك فقياسهـا امر سـهل للغاية .

« ولبيان ذلك نقول اذا حصلنا على حزمة من الاشعاعات بوسيلة ما من جسم اشعاعي ووجهناها الى صفيحة قابلة للتألق ظهرت على تلك الصفيحة بقعة مضيئة . وبما ان هـذه الحزمة من الجزئيات متكهربة فهي تحيد اذا واجهت سطحا ممغطسا فيمكن اذن تحويلها بواسطة مغناطيس ويكون تحول البقعة المضيئة على السطح القابل للتألق مشيراً الي مقدار الانحراف الذي يكبـده سطح مغناطيسي معروف الشدة للجزيئات المتصاعدة من المادة . وبما ان القوة الضرورية لتحويل كتلة مقدرة من تلك الجزيئات الي مسافة معينة تسمح بتحديد سرعة اندفاع تلك الجزيئات فيعلم انه من الممكن استنتاج درجة سرعتها من مقدار انحرافها . فاذا احتوت حزمـة من الاشاعات علي جزيئات مختلفات في السرعة فانها ترسم خطا يختلف في الطول والقصر على الصفيحة القابلة للتألق بدل ان يظهر على شكل نقطة بسيطة . بهـذه الوسيلة يمكن قياس سرعة كل منها »

هذا ما ذكره الاستاذ جوستاف لوبون عن كيفية تحليل المادة في محاضرته مجملا وقد فصـل تلك الـكيفيـة في كتـابين ضخمين . وبمـا انه يقول بأن المـادة بتحللها تفني في الاثير فلننظر في ماهية هـذا الاثير الذي يعـلل به الطبيعيون اكثر الظواهر المجهولة .

***

(الاثير ما هو ؟)

تتردد كلمة الاثير في أفواه العلماء عند كلامهم على النور والحرارة والـكهرباء وغيرها من القوي الطبيعية فيحلون به ما أشكل عليهم حله من معميات الـكون ويفكون ما استبهم من طلاسمه .

ما الذي دعـا الطبيعيين الي افتراض وجود شيء لا يدرك بالحـواس ولا

يخضع للتجربة ويناقض بخصائصه وصفاته كل ما يعرف من أشياء الطبيعة ؟

كان الطبيعيون الاقدمون يرون ان النور والحرارة ينتقلان من بعض الاجسام الى بعض بتأثيرها الذاتي من بعد فلما تأملوا في ذلك في العصور الحديثة وجدوه مما لا يعقل، فافترضوا انهما يسريان من الاجسام المنيرة والحارة على صورة أمواج فاجمعوا على قبول هذا الافتراض لانه فسر لهم كثيراً من المجهولات ولكن اعترضهم امر جلل وهو : على أي شيء تسري تلك الامواج من النور والحرارة الينا من الشمس والكواكب وليس بيننا وبينها هواء ؟ فاضطروا لفرض وجود حامل لتلك الامواج ولكنهم ان قالوا ان ذلك الحامل هو الهواء كذبهم الحس فان الهواء ثبت انتهاؤه عند حد محدود من سطح الارض ثم وجوده يستلزم أن يكون ثقله لا يطاق وان يكون عقبة كأداء في طريق الكواكب فيصدها بكتلته غير المتناهية كما تصدها حجب الفولاذ . وان قالوا ان ذلك الحامل ليس بالهواء ولكنه شيء مادي ألطف منه لزم منه كل ما يلزم من الافتراض الاول فان مادام ماديا فانه لا نهايته تجعله اكثف من الصوان . واننا انما نري ماوراء هذا الهواء من الكواكب لانه عبارة عن طبقة قليلة السمك ومع ذلك فانه يلون السماء باللون الازرق ويكسر أضواء الكواكب فيخدعنا عن اماكنها ويرينا بعضها قبل ان تظهر على الافق وغير ذلك فما قولك لو كان ماثلا هذه اللانهاية ؟

لما آنس العلماء كل هذه الصعوبات من فرض ذلك الحامل ماديا اضطروا ان يفرضوه غير مادي لا يعني انه روحاني بل يعني انه شيء لم يصل لدرجة المادية فلا تسري عليه قوانينها . وهم لاجل ان يخلصوا من كل الايرادات التي يمكن أن توجه الى ذلك الشيء فتحول بينهم وبين التعليل به اخذوا لانفسهم كل حيطة فافترضوه شيئا مالئا للوجود كله لا يخلو منه قدر ذرة في الارض ولا في السماء لا وزن له ولا مسام وغير قابل للانضغاط وغاية في اللطافة

في عهد الشعور بالضرورة الماسة لافتراض الاثير كان العقل يحذوراء بناء نظرية

جديدة غير نظرية الجواهر الفردة فوجد من هذا الاثير سعة فتصورها حركة زوبعية حاصلة فيه كما قررنا ذلك في المقالة العاشرة . ولما رأي استحالة بعض قوي الطبيعة الي بعض كاستحالة الحرارة الي كهرباء اونور الخ قرر بأن هذه القوي كلها ليست بشيء سوي ذبذبات حاصلة في ذلك الاثير ايضا .

أشعر وأنا اكتب هذا بأن القاريء البعيد عن المسائل العلمية قد أخذ منه العجب كل مأخذ من تألب رجال يعتبرون أبعد الناس عقولا عن الاوهام علي القول بوجود شيء خلقوه بخيالهم ونحلوه كل الصفات التي يحتاجون هم اليها في تعليلاتهم وليس لهم على ذلك دليل ولاشبه دليل . ثم يتساءل ذلك القاريء بعد ذلك عما اذا كان يوجد بينهم و بين غلاة الدينيين فرق من الوجهة الاعتقادية وعما عسي أن يفضي اليه الاغراق في تمجيد هذا الاثير .

نقول نعم انه أفضى بهم الي القول بأنه الموجود المطلق الذي لا أول لوجوده ولا آخر لبقائه فهو مصدر كل كون ومستقر كل قوة ومستودع كل ابداع . منه تصدر الكائنات واليه تعود بعد أن يتم كل منها دورته التكوينية ويؤدي وظيفته العالمية .

ما الذي بقي من الفرق بين الصفات التي يوصف بها الخالق و بين الصفات التي تنحل للاثير ؟ الفرق لايكاد يذكر وقد أفضى القول بالاثير الي القول بالخالق فاعتبر الاثير نفسه اله الكون . قال بهذا الرأي جمهور كبير من علماء الالمان على رأسهم الاستاذ (ابرنست هيكل) المشهور المدرس بجامعة (يينا) من المانيا فكتب في كتابه (وحدة الوجود) قوله :

« انهذا الترقي في ادراك الاثير يكسب فلسفة وحدة الوجود قوة عظيمة . وذلك ان الآراء الضالة التي كانت تقول بوجود الفراغ وبتأثير بعضها علي بعض من بعد قدزالت الآن . وهذه اللانهاية الوجودية وان كانت المادة لاتشغلها كلها فانها برمتها مشغولة بالاثير . ثم قال :

« نعم ان نظرية الاثير اذا أخذت كقاعدة للايمان يمكنها أن تعطينا شكلا .

معقولا للدين . وذلك اذا جعلنا بازاء الكتلة الجامدة الثقيلة أي المادة ذلك الاثير الشامل المتحرك الذي هو الاله الخالق »

ثم أيد الاستاذ (هيكل) رأيه هذا برأي استاذ (شليسنجر) الالماني الذي أبداه في خطابة القاها في التنبورغ من المانيا فذكر عنه انه قال :

« ان أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية واكبر مجلى من مجالى الحياة الآلية يمكن ان يعلل وجودها على السواء بفعل قوي طبيعية واحدة . وبما انهما من جهة أخري يشتركان في الصدور من الاصل الاصيل المتوحد الذي يملأ الوجود اللانهائى وهو الاثير فيمكن اعتبار هذا الاثير الها عاما ويكون نتيجة ذلك هذا الحكم وهو : أن الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية » انتهى.

الى هذا الحد وصل الاعتداد بأمر الاثير لدي العلماء المعاصرين لنا فهم وان كانوا لم يجمعوا على الهيئة الا انهم اجمعوا على ضرورته لفهم كل صغيرة وكبيرة في الكون .

عندي ان العلماء الذين قالوا بالهيئة اكثر تحوطا لسمعتهم من الذين لم يقولوا بها. ذلك لانهم لما عجزوا عن تعليل أصغر صغيرة في الكون بدون فرض هذا الاثير ورأوا انهم بفرضهم وجوده يعتمدون على مجرد خيالاتهم وأوهامهم ويجافون أسلوبهم الرسمى نفسه خجلوا ان تكون هذه سيرتهم في أوليات علومهم فيغفرونها لانفسهم ويحملون على الذين عجزوا قبلهم عن تعليل وجود الكون فقالوا بوجود خالق له . نعم اننا لنعجب من عالم يؤمن بوجود مادة مصمتة لاوزن لها ولا تقبل الانضغاط وهي مع ذلك غاية في اللطافة موجودة من ازل الازال وباقية آبد الاباد . وهو لم يرها ولن يراها ومع هذا كله يصيح بملء فيه ناعيا على المعتقدين بالله انهم يقولون بوجود ذات لم يروها وباطلاق صفات عليها ليس لهم عنها من علم غير الظن وما تخيله الاهواء الخ الخ مما شحنت به كتب الملاحدة في القرن التاسع عشر . نعم اننا نعجب من هذا التناقض وعندي أن الاجدر بالعالم أحد أمرين فاما أن يكون لاادريا قحا فيريح نفسه ويريح غيره واما ان يتشدد في تسرية أسلوبه العلمي فلايحكم بوجود شيء لم يره ولا

يستطيع ان يراه منتظراً حتي يفتح عليه بعلم مالا يعلم . أما فرض الفروض والجمود عليها كما نري في مسألة الاثير فليست من العلم ولا مما يرقي العلم . وجمودهم هذا على أمثال هذه الفروض ينسي تلاميذهم واشياعهم انها فروض فيتشبثون بها ويتوهمون انهم قد آووا من العلم الي ركن ركين وما دروا انهم يطيرون على أجنحة خيالاتهم على غير هدي فيضرون باسم العلم اكثر مما ينفعون

اما نحن وقد انتهينا الى هذا الحد فسننظر في أي المواقف اجدر بالعقل في مسألة المادة وأي الطرق يسلكها في تطلب الحقيقة المطلقة بحيث لا تصده نظرية ولا يخدعه خيال .

* * *

(نظرة انتقادية على الآراء في المادة)

رأي القاريء من عرضنا آراء العلماء فى المادة قديماً وحديثاً انهم لم يهتدوا الي شيء من أمرها وانها لا تزال تتعالى عن مداركهم، وان ما كان يدعيه الماديون من انها جواهر فردة جامدة وجدت من أزل الآزال وتبقي أبد الآباد اصبح ابعد الآراء عن العقل حتي قال عنه الفيلسوف (جيو) في كتابه (اللاتدين في المستقبل) وهو لا يتهم بمشايعة الاديان قال فى طبعته السادسة :

« ان الرأي الذي مؤداه ان الجوهر الفرد لا يقبل الانقسام ولا التجزؤ يعتبر من الوجهة الفلسفية من الآراء الطفلية . فقد أثبت طومسون وهلمولتز ان الذرات في ذاتها زوبعات متشابهة ثم قال :

« اذا وسع المذهب المادي مدي نظره وجب عليه أولا نسبة الحياة الي العنصر العام بدلا من أن يفرضه مادة عمياء . قال الفيلسوف سبنسر (كل جيل من الطبيعيين يكشف في المادة المسماة عمياء قوي ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة) فاننا لما رأينا أجساماً جامدة تحس رغماً من جمودها الظاهري

بتأثير قوى لا يحصى عددها ولما أثبتت لنا آلة التحليل الطيفي بأن الذرات الارضية تتحرك موافقة حركة الذرات الموجودة في الكواكب . ولما اضطرونا الى أن نستنتج من ذلك أن ذبذبات لا يحصى لها عدد تخترق الفضاء في كل جهة وتحركة . لما رأينا ذلك كله وجب علينا ان ندرك ماقاله سبنسر من ان (الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة بل هو وجود حي في كل جهة من جهاته حي بأعم معاني هذه الكلمة ان لم يكن بأخص معانيها).

وقال الدكتور (فيلبون) في مجلة (العلم والحياة) الفرنسية صفحة ٤٥١ من مجلد سنة ١٩١٧ وهي مجلة طبيعية بحتة .

« لقد حلت كلمة (القوة) محل كلمة (المادة) فما يدرينا ما اذا كانت كلمة (روح) ستحل محل كلمة (قوة) ؟ هذه المسائل المحيرة لا تزال سراً من اسرار المستقبل» انتهى.

نعم ان مذهب الجوهر الفرد أصبح لا يستحق المناقشة ولكن اذا كان العقل قد أباه لما يرد عليه من الاستشكالات وقد جاءت التجربة بنفيه أيضاً فهل يرتاح العقل الى المذهب الاخير وهو أن المادة لاشيء غير قوة متحركة حركة سريعة جداً ؟

نحن لا ندرك القوة الا على صورة حركة في جسم مبادى أما القوة المجردة عن المادة فلا ندركها وليس لدينا من دليل على وجودها مستقلة في الخارج فكيف يسوغ لنا اسناد المادة الي مجهول واعتبار هذا الاسناد علما أرقي مما كان لنا من قبل ؟

يقول معترض : ألا تعرف بأن المادة أمكن احالتها الى اصلها وهو القوة وهذا الدكتور شبلي شميل الذي طالما دافع عن الجوهر الفرد وعن نظرية عدم تلاشي المادة اعترف به كما ورد ذلك في كتابه (فلسفة النشوء والارتقاء) صفحة ٣٤ وهو قوله :

« اتجه نظر العلماء الي هذه المسألة علي أسلوب أقرب الي العلم منه الى الفلسفة

في أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن . وقد ذهب (غوستاف لو بون)في مؤلف له سماه نشوء المـادة الى نفي ثبوت الجوهر الفرد ثبوتاً مطلقاً اذ اعتبره مخزناً لقوي هائلة أو هو متجمد قوي وانطلاقها تبديد لماديته . وذهب الي ان المادة بناءعلي ذلك تتلاشى خلافاً للمقرر في العلم من ان المادة لاتتلاشى والحقيقة أنها تتلاشي في (القوة) التي تتحول اليها . الى ان يقول :

« وسواء سميـا جوهر الـكون الاصلى أثيراً أو هيولي والقوة المتحولة عنه قوة او حركة فالمعني واحدوماهو الااختلاف الفاظ فقط والمهم تحول هذا الجوهر وانحصاره في واحدهو(القوة أوالحركة) التي هي حقيقةثابتةفى العلم بخلاف الاثيراوالهيولى التي هي فرض لجلاء الـكلام وتقريبه الى الفهم »

يقول المعترض فاذا كان القول باصالة القوةقدغلب حتي اخذ بهغلاةالماديين فاوجه التشكك فيه ؟

نقول ان واجب الباحث عن الحقيقة المطلقة ان يشك في كل امر لايقع تحت سلطان التجربة والمشاهدة فان اخذ به فلايجوز ان يعدو به قدره من الامورالظنيةالتي يتواضع عليها العلماء لتفسيرالغوامض وتعليل الحوادث . فلو كانت القوة شيئاً يري و يمكن ضبطه مجرداً بدون حامل مادي ورأينا بالتجربة استحالة المادة الى قوة وهذه الي تلك كان قبول هذه النظرية امراً لامنـاص منه . ولكن الواقع ان (القوة) كلمة تقال للدلالة علي آثار تقع في العالم المادي لايمكن فهمها الابها .فاذا ثارت عاصفةقيل تحرك الهواءبقوة واذاسقط حجر علي الارض قيل انجذب اليهابقوةولكن ماهي القوةمجردةعن هواءوحجر ؟ لاندري ولا احد في العالم يدري.

فكلمة (القوة) التي جعلها العلماء المعاصرون لنا مبدأً ومعادا لجميع الـكائنات المحسوسة لاتساوي اكثر من كلمة « الجوهر الفرد » وستحول تلك ما خولت هـذه من السلطان المطلق ثم يعثر بها السقوط الى الحضيض فتخلفها كلمة اخري اصلح منها لمسايرة العلم في الدرجة التى يكون عليها اذا ذاك ثم لاتكون تلك هي الـكلمةالنهائية . بل لاينفك الانسان ينتقل من مدركات ومصطلحات حتى يبلغ الغاية مما اعد لبلوغه

من العلم . ولا ندري ان كان يتم له هذا العلم المطلق في هذا العالم بحواسه القاصرة هذه ام في عالم آخر حيث تنطلق روحه من القيود المادية .

فيجب على طالب الحقيقة المطلقة أن يحترس من الكلمات الفارغة وان سايرت اهواءه الراهنة فرب انخداع بنظرية لا اساس لها يقف بصاحبه عشرات السنين في دائرة معينة من الخيال و يقف بأمم بعدها عشرات القرون في حالة محدودة من الضلال . فأسلوبنا في الوصول الى الحقيقة المطلقة هو اسلوب العلم الطبيعي العصري اي المشاهدة والتجربة فما لا يقع تحت سلطانهما من النظريات فليس من العلم في شيء ولا يجوز ان يعتد به مهما حل من مشكلات العلوم وموضوعات الامور فقد كان الطبيعيون الى ماقبل مئة وخمسين عاما يعللون جميع المسميات الوجودية بالعناصر الاربعة الماء والهواء والتراب والنار وقد اتضح اليوم بالتجربة أنها مركبة . وكانوا يحلون بالجوهر الفرد الذي لا يقبل الانقسام ولا التلاشي كل المعضلات الطبيعية وقد ثبت بالعمل انه قابل للانحلال والفناء فلا يصح والحالة هذه ان يعدل الباحث عن الحق الصراح الا على ما يحس به ويمتحنه بتجربته بوسائله الذاتية . وعلى هذا الاصل العلمي الصارم اسسنا مذهبنا الايماني الذي سنفضي به الى القراء فأحسن موقف نقفه امام مسألة المادة هي ان نعترف بأن اصلها مجهول وان كل ما يقال فيه لا يخرج عن دائرة الظنون والآراء . فلننتقل بعد ان استوفينا الكلام في المادة الى النظر فيما يسمى بالنواميس الطبيعية لنرى ماهيه .

***

(النواميس الطبيعية)

للناس مذهبان في حدوث الحوادث احدهما مؤداه ان في العالم ارادة حرة مطلقة تعمل فيه على مقتضى علمها وحكمتها وتربيه لتهيئه الى غاية بعيدة قدرتها له . هذا

مذهب جم الدينيين . وثانيهما ينفي هـذه الارادة الحرة المطلقة ويقرر ان الـكون مقود بنواميس ثابتة لا تتحول . وهذا رأى العلم الطبيعي والفلسفة

أفاض أصحاب الـكلام في هـذا الموضوع كثيراً فقال بعضهم ان النواميس لاتنفي الارادة الحرة للخالق اذ يقال ان تلك الارادة شاءت أن يكون الوجود قائماً على هذه الحال فبرأه وسلط عليه هذه النواميس الثابتة . وقال غـيرهم ان ارادة الله الحرة المطلقة العاملة في العالم لاتنـافي أن يقوم الوجود على نظام ثابت بقوي ثابتـة لان الله مـنزه عن الهوي والـتردد والعبث ولا تصـدر عنـه الا الامور الثابتـة الـكاملة فما ترونه من ثبوت القوي الطبيعية هو مظهر الارادة الالهيـة الثـابتة.

ما هي النواميس الطبيعية ؟ هي القواعـد الثابتـة التي تخضع لهـا جميـع الـكائنـات والتي من مقتضـاها ان الحوادث المتشابهة تحصـل دائمـاً فى أحوال متشابهـة .

ادراكنا للنواميس أمر ذاتي وتجريدي وواقعي معاً فهو ذاتي لانه عقلي محض. وتجريدي لانه حاصل مجموع حوادث عامة كثيرة . وواقعي لان حقيقته لايمكن النزاع فيها كما لايمكن النزاع فى تلك الحوادث ذاتها .

فى العالم ظواهر وخواص ينتج من تألفها جميع ماهو كائن من الحوادث الطبيعية . هذه الظواهر ليست بشيء سوي تلك الخواص في حالة تأثـير على مخنا لتحدد فيه الصور المحسوسة . وقد عرف أن في تعاقب وتجمع تلك الخواص المختلفة التى ولدا الحوادث نظاماً مقرراً . هذا النظام نفسه هو الناموس الطبيعي . وقد اعتبرت النواميس عامة لانها هى في جميع الاحوال وجميع الامكنة . وأبدية لانها لاتتغير بتأثير أي مؤثر في أي زمن من الازمان

هذا هو رأي العلم والفلسفة منذ دهر طويل الا ان هذا المذهب أخذ في القرون الثلاثة الاخيرة من الاذهان مكانا اوسع مما كان له وشاع حتى وصل الي من لاحظ لهم من فهمه

أما طالب الحقيقة فلا يهمه الا أن يدرك الواقع كما هو سواء تحقق هذا الرأي في النواميس أم لم يتحقق فما يجب ان يعرف في هذا المقام ان توالى انخداع العقل بالمقررات الرسمية ولبثه فيها قرونا طويلة ثم تبينه وهنها وخروجه منها الى سواها قد أثر في رجال في أواخر القرن التاسع عشر وفي العشرين تأثيراً هاماً حتى أصبح الواحد منهم أخوف ما يخاف منه أن يقف عند رأي لم تحققه التجربة ولم تؤيده المشاهدة علما ان ذلك الوقوف يصده عن الوصول الي الحقيقة التي هي غرضه من البحث حتي انه مما يدهش له القاريء غاية الدهش ان يهب رجال من أرفع طبقات المفكرين فيشكون في وجوب النواميس ويقولون بامكانها وباتباعها في سيرها تدبير مدبر . لو كان القائلون بهذا الرأي من الطراز الوسط لما عبأنا بأرائهم ولكنهم من رتبة وضعة النواميس أنفسهم منهم العلامة « اميل بوترو » العضو بالمجمع العلمي الفرنسي فقد نشر كتابا في هذا الموضوع أسماه « امكان النواميس الطبيعية » (١) جاء في طبعته الثامنة الصادرة في سنة ١٩١٥ ما يأتي :

« من الخطأ اذن أن تقول ان النواميس هي التي تدبر الحوادث الطبيعية فهي لم تكن قبل الاشياء . ولكن الاشياء هي التي اقتضتها فهي لا تدل على غير العلاقات المشتقة من طبائعها الموجودة قبل وجود تلك النواميس »

ثم قال : « فالعالم يرينا في كل مكان بجانب الدوام والثبوت وهي الحالة التي تنفي كل شك في وجوب النواميس تغيراً وارتقاء وانحطاطا وهو يقضي القول بامكانها وليس هذا في النواميس التفصيلية ولكن في النواميس الجملية التي تجمع تلك النواميس التفصلية »

ثم قال : « ولكن أكان هذا النظام المالى (يريد نظام العالم) مما يمكن أن يوجد

---

(١) المراد بامكان النواميس انها من قبيل الامور الممكنة لا الامور الواجبة

اذا كان الوجوب المطلق هو الناموس السائد في الكون وكان الاصل الذي مؤداه لا يتلاشي شيء ولا يتجدد شيء سارياً بدقة على الكائنات ؟ اكانت توجد في العالم قيم متفاوتة أي صفات ومزايا بعضها أرجح من بعض ؟ اكان يوجد ترق وتكمل بين ثمرات قوة واجبة واحدة ...

ثم قال : « الانسان في علاقاته مع العالم لم يك بمتفرج ساذج ليس عليه الآن يقنع بالاشياء كما تحدث بمقتضي القوة الواجبة ولكنه يستطيع أن يعمل ويطبع المادة بطابعه الخاص ويستخدم نواميس ليحدث اعمالا ارقي من أعمالها . فسموه على الكائنات ليس بالقول المجازي او الوهمي المتولد عن الجهل وليس هو بالشعور المقيم بقيمة عالية وهمية . فان سموه هذا يدل على سلطانه العقلي على غيره من الكائنات وقدرته على احالتها على درجات متفاوتة الى ما يوافق أفكاره »

وقال أيضاً : « ان وجود الانسان وهو كائن شاعر بذاته لا يمكن تفسيره بمحض فعل النواميس الطبيعية والفريولوجية . فان وجوده واعماله تقتضي من الطبيعة احداث تغييرات لاتستطيع احداثها » انتهى

هذه نظرات لم يصل العلم بها بعد الا للذين نصبوا أنفسهم لتتبع حركات العقل الانساني في عهده الاخير عهد خروجه من دور الانخداع العلمي الذي جمد فيه نحوا من ثلاثة قرون متوالية كما بينا ذلك . أما جمهورا لنا ممن يكتفون من العلم الطبيعي عما قرأوا من بدا آته ولم يتبعوا حركة العقل الانساني حيال المجاهيل الوجودية يعدون مثل هذا الكلام من البدع التي لاتغتفر لكاتب كائنا من كان لانهم ألفوا ان يسمعوا من النواميس الطبيعية موجودة من أزل الآزال وانها مدفوعة الي افعالها المتقنة ومراميها المحكمة بمحض طبيعتها متغافلين عما يرد على هذه المدركات من الاشكالات التي لاتقف عند حد . فاذا حاول اليوم وضعة تلك النواميس نقض ما ابرموه بالامس ثار عليهم من لم يبلغوا أن يكونوا تلاميذ تلاميذهم فرموهم بالغباوة او بالجنوح الى الوساوس الدينية

اما نحن حيال هذا الامر الجلل فلا يسعنا الآن في هذا المقام حشد آراء عدة من اقطاب العلم في هذا الموضوع لنثبت ان هذه النزعة ليست فردية اتجه بها عقل نزوع الى المخالفة ولكنها ثورة نظرات صادقة ونتيجة حركة من العقل للخلاص من ربقة الكلمات الفارغة التي اقتضتها ثورة عقلية في عهد سابق

ليس غرضي من هذا ان اعلن بأن رأيي في النواميس الطبيعية هو رأي العلامة (اميل بوترو) ورأي العلماء الذين سأذكرهم فليس هذا موطنه ولكن غرضي ان اصور للقارئين ان العقل العصري بدأ يمل كل الملل من حمل آصار الالفاظ الفارغة والعبارات الخلابة تحت اسم مقررات علمية قرونا متوالية وأخذ اليوم يناقش كل تلك المقررات الحساب ليميز حقها من باطلها وهي نزعة يجب ان تقابل منه بالاجلال لان الاستنامة الى النظريات مهما كانت عريقة في القدم وحاصلة من الخلابة على حظ وافر فليست مما يليق بشرف العقل ولا يتفق والغرام بادراك الحقيقة المطلقة

***

(النواميس الطبيعية أيضا)

ليس الخروج على ماتقرر من أمهات المدركات العلمية الخاصة بالعلل الاولية فردية بل هي ثورة فكرية عامة يريد العقل الانساني بها أن يرفع عن عاتقه نيراً ثقيلا من الفاظ فارغة اعتبرت عقائد راسخة وانتظر منها حقبا طويلة أن تؤدي الي كشف مساتير الوجود ثم تبين أنها حجب كثيفة تحجب وراءها الحقيقة المطلقة في لألائها وجلالتها

فقد رأينا ان النواميس الطبيعية التي كان يذهب العقل العلمي الي وجوب وجودها من أزل الآزال وبقائها أبد الآباد أصبحت موضع الشك لافي وجوبها فقط بل في

وجودها أيضاً . فقال الفيلسوف(ادوارلوروا) كمانقله عنه العلامة الرياضي الكبير هنري بوانكاريه في كتابه (قيمه العلم) صفحة ٢٣٤

« العلم لم يتألف الا من تواضع العلماء على أصوله وهو لكونه على هـذه الحالة يظهر لنا بعظهره من الثبوت . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست الا من مخترعات العلماء أنفسهم فالعلم لايستطيع وحالته هذه أن يكشف لناعن وجه الحقيقة المطلقة . وكل ماينتظر منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل »

كلام صريح في ان النواميس مخترعات عقلية فرضت لفهم الحوادث الطبيعية وليس الاستاذ ادوار لوروا وهوصاحب مذهب فلسفي خاص بأقل اطلاعاً على الحوادث الوجودية من أي مبشر من مبشري المادية في الشرق.

وقال العلامة (وليم كروكس) الكيماوي العضو بالجمعية العلمية الانجليزية وهو واحد من افراد يعدون على الاصابع في خطبة له كما ورد في مجموعة خطبه صفحة ٣٦

« ان ما نسميه ناموساً طبيعياً هوفي حقيقته وجه من وجوه الاتجاه الذي يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع ان نعلل الحركات الذرية كما نعلل حركات الاجرام السماوية ونستطيع ان نستكشف جميع القوانين الطبيعية للحركة ولكننا مع هذا لانكون أقرب مما كنا عليه الي حل هذه المسألة وهي . أي ضرب من ضروب الارادة والفكر كائن خلف هذه الحركات الذرية مجبراً اياها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ وماهي العلة العاملة التي تؤثر من وراء حجاب ؟ (وفي الاصل من وراء ستار المسرح) . وأي ازدواج من الارادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجة عن النواميس الطبيعية بحيث يحملها علي تكوين هذا العالم المادي الذي نعيش فيه ؟ »

هذا قول واضح بأن الناموس الطبيعي في حقيقته وجه من وجوه اتجاه قوة تعمل في التكوين لا أنه عامل مستقل يمكن أن يسمي باسم وينحل صفات الالوهيـة وان خلفه ارادة وفكراهما العاملان الحقيقيان في الواقع

وقال الاستاذ المذكور في خطبة أخري وهو يدل على انه لا يري في النواميس الطبيعية المعروفة لنا الا قوى تابعة لقوي أرقي منها قال كما وردفي صفحة ٨ من مجموعة خطبه :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية نبدأ بادراك الى أي حد تنحصر هذه النتائج أو كما نسميها النواميس في دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم اما انا فان عدم اعتمادي على رأس مالي العلمي قد بلغ حداً بعيداً جداً . فقد تقبض هذا النسيج العنكبوتي للعلم كما عبر عنه بعض المؤلفين حتى لم يبق منه الا كرية حقيرة تكاد لاتدرك »

أنظر الى أي حد يصل اعتراف العلماء في هـذا العهد من التنبه من الغرور العلمي بجهلهم وقصر نظرهم حيال مسألة النواميس التي يظنها خفاف الاحلام ممن قشوا بعض القشور العلمية وجمدوا عليها من البداءة العلمية حالين بها كل مسألة تعترض عقولهم من مسائل الوجود فان عزت عليهم معضلة اخترعوا لها ناموساً جديداً بخيالهم ثم داولوه واعتبروه من الحقائق الاولية .

وقد عقد الاستاذ الاشهر (هنري بوانكاريه) العضو بالمجمع العلمي الفرنسي فصلا طويلا عن النواميس في كتابه (قيمة العلم) نقتطف منه مايدل على رأيه فيها . قال في صفحة ٢٧١ :

« اذا نظرنا في ناموس خاص أيا كان فانا نستطيع ان نتأكد من انه لا يمكن ان يكون الا تقريبيا. ذلك لانه مستنتج منه تحقيقات تجريبية وهذه التحقيقات لم تكن ولا يمكن ان تكون الا تقريبية »

وقال في صفحة ٢٧٧

« كثيراً مايقال من ذا الذي يدري ما اذا كانت النواميس لا تتطور وما اذا لم تكن في العهد الفحمي على ما هي عليه اليوم ؟ »

ثم ذكر ان محاولة الاجابة على هذه الأسئلة ليست في قدرة العلم وقال : « ان هذا الامر يتعاصى على كل ضرب من ضروب المراقبة بحيث انه اذا كانت نواميس الطبيعة ليست اليوم على ما كانت عليه في العهد الفحمي فاننا لا نستطيع التحقق من ذلك لاننا لا نعلم شيئاً من ذلك العهد الا ما نستنتجه استنتاجا من (افتراضنا) دوام النواميس الطبيعية »

كلام يدل على ان النواميس الطبيعية محل شك ولا يمكن البت في أمرها بحكم فاصل فالقول بثبوتها في مرتبة القول بتطورها وتحولها

وقال الاستاذ الدكتور (ج . جيليه) المدرس بجامعة السوربون بباريز في صفحة ٧١ من كتابه (من اللاشاعر بذاته الى الشاعر بها) في الطبعة الثالثة المطبوعة سنة ١٩٢٠

« النواميس التي تقود العالم المادي ليست حاصلة على ما كان يظنه الناس لها من الصرامة التامة المطلقة بل قيمتها نسبية ليس الا . وعليه فيمكن ان لا توجد لاجل محدود وان تتغير بعارض من العوارض وان يبطل عملها أيضاً »

هذه طائفة من آراء بعض كبار أقطاب العلم في النواميس وهي آراء غريبة في هذه البلاد ومنكرة في نظر الذين لم يدفعوا الى مضايق العلم وتعودوا ان يثقوا ثقة عمياء بكل ما لقنوه في طفولتهم وليس لهم من القدرة العلمية على النظر لانفسهم ولا يخلو الامر من رجوع بعضهم الى المؤلفات الموضوعة في (القرن التاسع عشر) حيث كان الغرور العلمي بالغا اقصى حالاته فيجدون كلاما مناقضا لهذا الكلام وينسون او يتناسون اننا انما ننقل عن أراكين العلم في عهدهم الجديد عهد تخلص العقل الانساني من الغرور العلمي الذي ران عليه قرونا متوالية .

اما نحن وقد اتممنا الكلام على المادة الجامدة وما يتعلق بها فننتقل الى الكلام على عالم الحياة وهو المجال الذي لقيت فيه الفلسفة المادية حتفها في العهد الاخير اللهم الا في نظر الذين يعيشون باجسادهم في القرن العشرين وبعقولهم في القرون الخالية .

﴿ ماهي الحياة ﴾

في الـكائنات الارضية اجسام تتحرك وتغتذي وتتوالد وأجسام لا يطرأ عليها شيء من هذه الاحوال، فاصطلح على تسمية الاولي حية والثانية جامدة . فما هي هذه الحياة ؟ أهي أصل قائم بذاته تحل بالمـادة الجامـدة فتحيها ثم تنفصل عنها بالموت وتذهب الي حيث أتت، أم هي حالة نطرأ على بعض المركبـات تقتضيها النواميس الطبيعية عند ما تـكون تلك الاجسام قائمـة على تركيب خاص فيكون لاشيء في الـكون غير المـادة وقواها الملازمة لها على ما يقوله المادون ؟ اختلف الفلاسفة والعلماء في هذا منذ القدم الي اليوم ونحن نورد للقاريء موجزاً من مذاهبهم في ذلك

وجوه الاختلاف كلها بين العلماء تنحصر في ثلاثة مذاهب : (أولها) المذهب الآلى أى الطبيعي الـكيماوي و (ثانيها) المـذهب الحيوي و (ثالثها) المذهب الروحاني .

فأما الاول فمؤداه ان الظواهر الحيوية يمكن تفسيرها بنفس القوي الآليـة الـكيماوية الطبيعية العاملة في المادة الجامدة .

وأما الثانى فمغزاه ان الظواهر الحيوية لا يمكن تعليلها الا بافـتراض وجود قوي متميزة عن القوي الآلية ولا تستحيل اليها تسمي بالحياة .

وأما الثالث ففحواه ان تلك الظواهر لا يمكن ان تحصل الا بوجود روح عامـة حالة بالطبيعة كلها تسوق كل كائن فيه الي غايته وتربيـه على مقتضى الدستور الذي سنته له .

فالفلاسفة اليونيون من الاغارقة الاقدمين كانوا من المذهب الروحاني أي انهم كانوا يرون أن الـكون كله مقود بروح عامـة تخلق وتربي كل كائنـاته علي السواء فلما جاء ارسـطو عارض هـذه النظرية وزعم ان الحيـاة وان كانت اصـلا

قائماً بنفسه الا انها ليست متوحدة بل متكثرة وعلى درجات شتى في الاحياء .

ولما نبغ ابيقور عزز مذهب ديموكريت في الجواهر الفردة واتبعه جم غفير من الاطباء اليونانيين والرومانيين فكانوا يعللون جميع الظواهر الحيوية بقوي الجواهر الفردة .

فلما ظهر الرواقيون وهم اتباع الفيلسوف ذينون جمعوا بين مذهب اليونيين الروحاني ومذهب ارسطو الحيوي فقالوا بوجود روح كلية مدبرة للكل وأرواح جزئية مدبرة للاجزاء ولم يشذ فلاسفة الاسكندرية عن مذهب ذينون الا في امور ثانوية .

بقيت هذه الآراء الفلسفية علي ماذكرنا حتى حدثت النهضة العلمية في أوروبا في القرن الخامس عشر وترقي علم التشريح وزادعلم الناس بأنواع الحيوانات والنباتات على أثر الاستكشافات الجغرافية فطرأ تغير في الآراء القديمة فقام العالم (باراسلز) يدافع عن المذهب الحيوي واخذ (فان هلمونت) يقرر بأن كل عضوحي من الجسم الحي له حياة خاصة به

فلما نبغ الفيلسوف (ديكارت) في القرن السابع عشر رفض جميع الآراء السابقة وذهب الى ان جميع ظواهر الحياة تستحيل كلها بالتحليل الي حركات وتعلل بالنواميس الآلية . ولكن هذا المذهب ظهر للباحثين بأنه من السذاجة بحيث لا يفسر جميع الحوادث واتفق في هذا العهد ان ترقت المباحث الكيماوية فأخذ كثير من العلماء يعللون الحياة لا بالقوي الآلية بل بالنواميس الكيماوية.

فلما جاء العلامة (نيوتن) نعى على ديكارت قصور مذهبه عن تعليل جميع حوادث الحياة وقرر انه يجب القول بوجود قوي خاصة وسوائل بين الكواكب في الاجزاء الخالية من الفضاء تؤثر من بعد ولا يمكن نسبتها الى القوي الطبيعية .

فلما نشأ (ستاهل) في القرن الثامن عشر ذهب الى ان المذاهب الآلية المتقدمة

لاتعلل الصفات الخاصة للحياة وأعاد المذهب الروحاني الى الفلسفة . ولكن مذهبه لم يعش الا سنين معدودة . فتلاه مذهب جامعة مونبلييه تحت زعامة العلماء (بوردو) و (جريو) و (بارتز) وهو المذهب الحيوي بعينه . فأحدث العالمان (بيشا) و (كوفييه) تهذيباً فيه فبقي سائداً الى النصف الاول من القرن التاسع عشر .

وفي سنة ١٨٣٣ نبغ (جان موللر) مؤسس الفزيوجيا الالمانية فأعطي للمذهب الحيوي شأناً عظيما وعلل به جميع الاختلافات البيولوجية

الا انه في آخر القرن الثامن عشر كانت استكشافات العالم (لافوازييه) في الكيمياء ومباحثه في التنفس ذات تأثير كبير على هذه المسألة . وجاء ثبوت تألف الاجساد الحيوانية من الاوكسيجين والكربون والايدروجين والازوت مضافاً الى ماعرف من قانون حفظ القوة كدليل حسي في نظر الماديين لنظرية الآلية اذ زعموا استنادا على هذه المعلومات ان الحياة لا تؤتي الاجسام التى تحل بها شيئاً جديداً وان هذه الاجسام هي عبارة عن آلات مولدة للحرارة فتتحول فيها الى حركة . وجاءت تجارب (برتلو) في المواد العضوية فمحت الفرق بين الكيمياء المعدنية والكيمياء العضوية . فاستطاع الماديون اعتماداً على هذه التجارب ان يجاهروا بأن الاجساد الحية مركبة من نفس العناصر التي تتركب منها الكائنات الجامدة وأن هذه البسائط تتحول في الاولى بتأثير القوى الطبيعية وتخضع لذات النواميس الكيماوية التي تخضع لها الثانية

هذه الاستكشافات عينها هي التي سمحت لطائفة من اعلام الفزيولوجيا امثال كلود برنار في فرنسا و بروك وهلمولتز ولودويج في المانيا بأن يعلنوا غلبة المذهب الآلي في أمر الحياة . فقال كلود برنار : ان عالم الفزيولوجيا تسود فيه نفس الدقة الآلية السائدة في الطبيعة والكيمياء فلكل ظاهرة فيه شروط ثابتة محددة تقتضيها يمكن الوقوف عليها من طريق التجربة والمقارنة . فلا يجوز الكلام والحالة هذه عن وجود قوة تسمى بالحياة غير محدودة ومتغيرة بل نواميس ثابتة غير قابلة للتغير ليست بنواميس

غائية بل سببية .

الا أن كلود برنار قائل هذا الـكلام كان يري ان حدوث أشخاص الاحياء في اختلافاتها وتنوعاتها التي لاتقف عند حد لايمكن أن يعلل بغير فرض وجود عقل مدبر اوجدها علي هذه الصور بارادته . فأكمل بهذا الرأي الاخير مانقصه في الرأي الاول

الركن الاقوي اليوم للرأي الآلى هو مذهب الاستاذ (لودانتك) الذي كان مدرساً للبيولوجيا (علم الحياة) بجامعة السوربون بباريز فان الماديين يزعمون انه دعم المذهب الآلى على أصول علمية وعلل حدوث الحياة بالنواميس الـكيماوية الطبيعية على أتم واكمل الوجوه . ونحن لامناص لنا من اعطاء مذهبه هـذا عناية خاصـة ولذلك فسنخصه بحيز يناسب شهرته في الفصل التالى قبل أن نخوض في عباب هذا البحث الجليل ونتغلغل فى مناحيه حتي يكون لما نأتي عليه من اقوال العلماء المثبتين للحياة ولادلتهم وتجاربهم نفس القيمة التي لها في نظر كل باحث مستقل لانهمه الا الحقيقة المطلقة .

***

(مذهب الاستاذ «لودانتك» في الحياة)

الاستاذ لودانتك توفي منذ بضع سنين وكان مدرسا لعلم البيولوجيا في جامعة السوربون بفرنسا وهو عمدة الماديين اليوم قال :

يذهب هذا البيولوجي ان لـكل خلية حياة اولية هي اصل الحياة العامة للجسد كله فلاجل معرفة سر الحياة في ذاتها يجب أن تدرس حياة الخلية نفسها . فبالتأمـل في الخلية نجد انها لاتفترق عن المـادة الجامدة الا بخاصة التمثيل أى باحالة المواد الجامدة الي مادة مماثلة لمادتها والمشاهد انه لوصار جسم جامد محلا لتفاعل كيماوي فانه

ينقص وينتهي أمره بالتلاشي . ولكن اذا صار جسم حي موضعاً لذلك التفاعل في بيئة صالحة له فانه يحفظ تركيبه و يزداد نمواً . هذا هو المعني المراد من التمثيل . وتحديده ضروري لفهم أصل الحياة . واذا بلغ جسم حي مكون من خلية واحدة حداً معيناً فانه ينقسم الي خليتين فتنموان كلاهما حتى اذا وصلت الي حد معين انقسمتا أيضاً وهلم جرا . وهذا هو التوالد وهو الميزة الثانية الاجسام الحية . وأما الموت فهو انهدام المادة الحية أي استحالتها الي مادة غير آلية فتصبح غير صالحة للتمثيل .

قال « لودانتك » فيظهر من هنا ان الاستحالات التي تحصل الخلية تأتيها من فواعل خارجة عنها طبيعية وكيماوية تابعة للبيئة لاذاتية في الخلية .

وقال أما حياة الاجسام المكونة من خلايا كثيرة من اول الكائنات الحقيرة الي الانسان نفسه فهي لا شيء غير مجموع حياة خلاياه الجسمية كلها .

هذا مذهب « لودانتك » وهو معتمد الماديين اليوم ولكن هذا العالم على عراقته في البيولوجيا فليس بعميد هذا العلم ولا بصاحب الكلمة العليا فيه فهو ليس في درجة توماهكسلي ولا أرنست هيكل ولا داروين ولا رسل والليس وغيرهم من الاقطاب الذين لا يحصون كثرة فجميعهم أثبتوا وجود الحياة وقرروا بأنها ارفع مستوى من النواميس الطبيعية الكيماوية ولا بدلنا من إيراد طائفة من اقوالهم.

فأما « داروين » فقد قال ان الانواع مشتقة كلها من اصل واحد او اصول محدودة نفخ فيها الخالق روح الحياة فهو يعتقد بأنها استمدت الحياة من خالق أوجدها ثم ثم أخذت في التنوع على مقتضى نظريته بالانتخاب الطبيعي.

وقال العلامة المشهور «روسل ولا س» نديد داروين في كتابه عالم الحياة المطبوع سنة ١٩١٤ صفحة ٤

« ان الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة للنواميس الآلية طبيعية وكيماوية بحيث انه من العبث

المحض أن يحاول البيولوجيون الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية (الحياة) وضوح تام و بعبارات علمية .

وقال الاستاذ (كيرنر) الالماني في كتابه الحافل (التاريخ الطبيعي النباتات) :

« الظواهر المشاهدة في البروتو بلاسما الحية في أثناء نموها وأخذها شكلها النهائي لا يمكن أن تعلل فى مجموعها بوجود تركيب خاص للبروتو بلاسما لكل نوع من انواع النباتات .

ثم قال : « لذلك لا أتردد أصلا في تسمية هذا التأثير الطبيعي قوة حيوية لا يجوز الخلط بينها و بين أية قوة أخري وأن آلة هذه القوة البروتو بلاسما وأن نتائجها الخاصة تعتبر بينتا مؤلفة لما يسمي بالحياة »

وقال الاستاذ الاشهر (ارنست هيكل) الالمانى كما رواه عنه العلامة روسل ولاس في كتابه عالم الحياة :

« ان كل خلية لها روح تدبرها ولكنها لا تشعر بوجودها »

وقال اكبر بيولوجي العصر الاستاذ (توماس هكسلي) في كتابه (المدخل على ترتيب الحيوانات) صفحة ١٠ عند كلامه على جماعات الحيوان المسمى (اميب) قال :

« في كل المملكة الحيوانانية لا يوجد مجموع يفوق هذا المجموع في تأييد هذا المذهب القوي الذي أومأ اليه جون هنتر اكثر من مرة وهو ان (الحياة) هي علة الاجسام لا أنها نتيجة لها . لانه في هذه الصور الدنيئة للحياة الحيوانية (يريد جماعة الاميب) لا يصادف الباحث مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أي أثر للتركب الجثماني فيها . فان هذه الاحياء لا شكل لها ومجردة من الاعضاء ومن الاجزاء المحدودة ومع ذلك فانها تملك الخصائص والمميزات الاصلية للحياة . حتي انها تستطيع ان تبتني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحيانا وعلى غاية ما يمكن من الجمال » .

«وقال الاستاذ الدكتور (ج. جوليه) في كتابه (من لاشاعر الى الشاعر) في طبعته الثالثة الصادرة في سنة ١٩٢٠

« قال شو بنهور : (كلما انحط الانسان في القوة العقلية قلت مساتير الوجود في نظره . فكل شيء عنده يحمل معه تفسيرا لكيفية وجوده وسبب حدوثه) فهذا جسمنا لاشيء أقرب الينا من وظائفه وكذلك لاشيء أبسط منها في نظر الرجل العامي والواقع انه لايوجد أعصى منها على أفهامنا . فالحياة لا تزال سراً مكنوناً. والحركة الحيوية ونشاط الوظائف العضوية الكبري ليست أقل منها تعالياً عن مداركنا . هذا النشاط الذي لا يخضع للارادة الشاعرة لذواتنا ينشأ ويتم بدون شعور منا كما ينشأ ويتم في الفزيولوجيا المسماة بفزيولوجية ما فوق الطبيعة .

« بل ان التركيب الجثماني وكل مايتعلق به من الميلاد والنماء والتطور الجنيني ومابعده ودوام الشخصية مدة الحياة والتجدد الذي يحدث لبعض الحيوانات في بعض أعضائها بل وفي بعض غددها كل هذه الامور أسرار لاتدرك اذا اخذنا بالقول المدرسي في مسألة الشخصية (يريد به القول بأن شعور الانسان بشخصيته هو مجموع الشعورات الجزئية لكل خلية من خلاياه) .

ثم قال : « فلنحاول ان نفهم تحت ضوء هذه النظرية قيام هذه الشخصية التشريحية الفزيولوجية واداءها لوظائفها ولندع جانباً الي حين النظر اليها من الوجهة الفلسفية المحضة بل ومن الوجهة النفسية البسيطة . ولا نواجهن الا الوجود الطبيعي أي الشخصية الفزيولوجية باعتبار انها مجموع حياة الخلايا الجسدية . فمن أين حصل هذا المجموع من الخلايا المركبة لاي شخص من الاشخاص على صورته النوعية . وكيف تم له ذلك ؟ وكيف يحفظ شكله طول مدة حياته ؟ وكيف تتكون شخصيته الطبيعية وتحفظ وجودها وتعيد تكوين بعض ما دثر من أعضائها ؟

ثم قال : « من أين كل هذا ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ لننقل مرة أخري هذه من المساتير

الطبيعية . وقد وصف (داستر) بقوله سر لا يسبر له غور ما يحدث في اثناء نمو الخلية الجرثومية من جذبها الي نفسها المواد الخارجة عنها و وصولها بذلك الي اقامة هـذا البناء المـدهش وهو الجسم الحيواني أو الانساني أو جسد انسان بعينه عـلى سنة التدرج . ومع هذا كله حاول بعضهم ووجد لهذه المساتير تفسيراً ولـكنه من الضعف بحيث يوجب الحيرة » .

هذه حيرة العلماء في امر الحياة فلننظر في حيرتهم في مسألة تنوع الانواع وما اقتضته من المذاهب الغريبة .

***

﴿ حيرة العلماء في أصل الانواع ﴾

النباتية والحيوانيـة

من اين اتت هذه الصور الحية التي تعمر الارض والهواء والماء ولا تدخل تحت حصر ؟ كيف خلف بعضها بعضا في مدي الزمان ؟ وماهي العلل الطبيعية التي اوجبت تكوّن هذه الصور المختلفة ؟ وكيف نفسر وجود هـذا التشابه الاساسي الذي يربط الـكائنات الحية بعضها ببعض ، وهذه الخلافات الـكبيرة والصغيرة التي تفصلها الى ممالك وطوائف ورتب وفصائل واجناس ؟ وماهو (النوع) في حقيقته وهو الامر الذي لابد من اعتباره في التاريخ الطبيعي ؟ هل هو اصـلي ام مشتق ، اولي ام ناتج من تسلسل حوادث طبيعية ؟ والانواع الشديدة التخالف فيما بينها أنشأت مستقلة على حدتها ام لجميعها اصـل قديم مشترك نشأت عنـه ثم تخالفت شـيأ فشيأ بالاسباب الطبيعية ؟ ان كان كذلك فلا بد من البحث عن هذا الاصل في بطن الارض الي اعماق بعيدة حتى نصل الي السطح الذي بدأت فيه حياة هذه الصور الحية .

هذه هي المسائل التي جاشت في صدر علماء التاريخ الطبيعي من زمان بعيـد

ولدت المذاهب المختلفة في أصل الانواع الحية . ونحن لا مناص لنا من تلخيص هذه المذاهب ليلم القارئ بتاريخ هذا البحث ولكن لا سبيل اليه الا من لدن القرن الثامن عشر اما ماهو فوق ذلك فكان أشبه باقاصيص العجائز وفيما نقلناه من تاريخ الفلسفة اليونانية نموذج منه .

ولا نجد مؤرخاً لهذه المذاهب اكبر ولا اوثق من العلامة الفزيولوجي الكبير (دوكاتروفاج) الفرنسى فسنلخص ما اورده في هذا الباب

﴿ مذهب بيوا دومايه الفرنسى ﴾

بيوا دومايه من علماء القرن الثامن عشر وضع كتابا فى سنة (١٧٤٨ و١٨٥٦) أسماه (محادثة بين فيلسوف هندي ومرسل فرنسي على مسألة انحسار البحر) سرد فيه آراءه في تركيب الكرة الارضية وفي أصل الكائنات الحية .

فكان يقول بوجود أعاصير تشبه اعاصير ديكارت ويذهب الى ان الشموس وهي مراكز هذه الاعاصير تفني تحت تأثير هذه التيارات الهوائية شيأفشيأ آخذة من كواكبها بطريق التبخير مقادير من المواد وخصوصاً الماء . وهذه المواد تحوي جراثيم الاحياء الموجودة على تلك الكواكب

فاذا بطل عمل شمس من الشموس وقفت اعاصيرها وخمدت نارها وصارت كتلة كثيفة فتلبث في الفراغ هى وما تحت سلطانها من الكواكب حتى تجذبها شمس أخرى فى حالة حياة فتنجذب اليها . ولا بد قبل وصولها الى مكانها منها من أن تمر بتلك المناطق المتصاعدة بالتبخير من الكواكب فتعلق بكل منها طبقة من الماء فيها من عناصر الاحياء مايكفي لعمارتها . فتى أخذت هذه الكواكب محالها من الشمس الجديدة التقطت الجراثيم التى اجتذبتها في السماء فانتشر على سطحها بعد قليل أنواع من النباتات والحيوانات يغيرها من حال الى حال

هذه أصول الاحياء لدى دو مايه وهو يقسمها الى قسمين أرضية ومائية ويرى

ان الثانية أصل للاولى . فكل نوع بحري ولد النوع الارضي المقابل له توليدا مباشرا. ويري ان كثيرا ماحدثت استحالات شخصية تشبه استحالة الدودة الي فراشة . وعنده ان هذه الاستحالة تمكن بنقل بيض جمل ليفقس في لجة مائية الى جهة هوائية . فاذا خرجت الصغار امكنها المعيشة فى الهواء فتكون اصلا ارضياً جديدا .

وهذه الاستحالات في رأي دومابيه تمت تحت تأثير الضرورة التي أوجبتها البيئة والعادة معاً .

وأول ما حدث منها كان بسبب انحسار الطبقة المائية التى كانت على الجبال من جراء مرور الارض من منطقة الابخرة المذكورة آنفا ثم ماوالت المياه تنحدر من علي سطح الارض وتلك الكائنات التي كانت فيها تستقر فى الهواء حتى وقفت المياه في الحد الذي نشاهده الآن.

ولكن كيف امكن لحيوانات مائية ان تعيش في الهواء بعد انحسار البحر عنها ؟

يقول دومابيه امكن بحكم الضرورة فان هذه الحيوانات التي لا يحصى لها عدد فى بقعة اذا انحسر عنها الماء اضطربت وهاجت ومات معظمها ولكن لا يعقل ان تموت كلها بل لابد ان يكون بقي منها ولو زوجان اثنان وهما يكفيان لتوليد هذا النوع في الهواء .

هذا هو اصل العالم الارضى وامثاله وتفسير تكون الصور الحية عليه وعليها .

ولكن فات العلامة دو مابيه اصل تكون هذه الجراثيم على اول كرة ارضية. هذا هو الامر الذي حير العقول ، اما افتراض مجيئها من كوكب آخر فلايحل هذه المسألة ولكن يزيدها تعقيدا كما رأيت.

﴿ مذهب رونيه روبينيه الفرنسي ﴾

نشر العالم رونيه روبينيه مذهبه فى تكوّن الخليقة وقيامها في كتابه المسمى (اعتبارات فلسفية للتدرج الطبيعي لصور الكائنات) او (محاولات الطبيعة التي تتعلم كيف تخلق الانسان) الصادر فى سنة ١٨٦٨ .

يذهب العلامة روبينيه الى ان الطبيعة مجموع واحد مستمر مؤلف من وجودات متنوعة غير تاركة محلا لثغرة ولا لفترة فيه . ولكن الطبيعة لا تعرف الطفرة فهي سائرة في جميع مكوناتها على سنة التدرج حتي في أقصي ثمراتها . والوجود كله حي حتى ان المادة التى يراها الناس جامدة هى فى نظر روبينيه حية ومؤلفة من جراثيم تصلح لتوليد كل شئ من جماد ونبات وحيوان . وتولد هذه الكائنات لا يعوز اكثر من وضع المادة فى احوال تصلح معها للتوليد . ومتي نمت جرثومة من هذه الجراثيم ضمت الجراثيم المجاورة لها اليها ومتي انحلّت خرجت منها تلك الجراثيم ودخلت فى الحالة التى كانت عليها قبل دخولها في تكوين ذلك الجسم الجديد . وهذه الجراثيم صالحة لان تأخذ بنائها جميع الصور الممكنة . وعليه فلا توجد فى الطبيعة غير مملكة واحدة هى المملكة الحيوانية . فالارض والكواكب فى رأيه كائنات حية . ولكننا لا ندرك ذلك لضخمها وتعاليها عن ابحاثنا . ففي هذا العالم الضخم الحي لا يمكن ان يتولد الا آحاد . أما الانواع التى يصطدم فيها العلماء فهى وهم باطل لا حقيقة له نشأ من ضعف أعضائنا . ذلك اننا نعجز عن ادراك الخلافات الصغيرة التى تفصل بين أشخاص الكائنات الحية فنجمع الاشخاص التى تخالف غيرها في أمور مدركة لنا ونجعلها نوعا . ونشأت كلمات الجنس والرتبة والمملكة التي تستعمل في التاريخ الطبيعي من العلة المذكورة آنفا . وما هي الا كلمات فارغة استوجبها قصورنا ليس إلا . ودليلنا على ذلك خلاف العلماء الذريع في تحديد عدد الانواع واستكشاف اشخاص حية كل يوم تأتي فتسد فراغات بين الاحياء كانت تعتبر حدودا فاصلة بين نوعين متجاورين

فكل هذه الصور وقتية والطبيعة في تجديد مستمر لاتكرر ماعملته اولا . والترقى مستمر أيضاً فيها . فالجماد يستحيل الى نبات والنبات الي حيوان والحيوان الي انسان . ولا يصح في نظر رو بينيه ان يقف الترقي عند حد الانسان بل يجب ان تكون موجودة كما يقول : « صور ألطف وقوي اعظم مما للانسان من ذلك . والقوي تستطيع ان تتخلص شيأ فشيأ من كل مظهر مادي لتكوين عالم آخر غير هذا العالم ». انتهي

فرمى الطبيعة في نظر رو بينيه هو تكوين هذا الانسان ولكنها لم تتوصل الى تكوينه الا بعد محاولات كثيرة انتجت كائنات لا تدخل تحت حصر ، فلا تعتبر الفرد من نوع الاورانغ أوتانغ أنه من تلك المحاولات الطبيعية لتحقيق غرضها النهائي وهو الانسان ، ولكن اعتبر منها أيضاً الحصان وشجرة البلوط والاحافير والجمادات. والدليل على ذلك انك قد تصادف احجارا منها ما يشبه القلب ومنها ما يشبه المخ ومنها ما يشبه اليد والرجل . وكلها محاولات جزئية من الطبيعة . جاءت بعد محاولاتها الجملية. وذكر رو بينيه ان الطبيعة بعد ان انجحت في توليد الانسان أخذت في ترقيته وضرب مثلا بالفرق بين الانسان ذي الذنب و بين الايطالي واليوناني والجركسي . ثم قال وليس هذا منتهي ترقيتها الانسان بل انها ساعية في امر اكبر من ذلك وهو محو التخالف بين الذكر والانثي وقد ظهرت محاولتها احداث هذا الامر بتكوينها الكائنات الخنثي أي التي لها اعضاء تناسل الجنسين معاً . فلا شبهة فى أنها ترمى بذلك الي محاولة توحيد الجنسين وسيتم ذلك على مدي الدهور .

هذا هو مذهب رونيه رو بينيه وهو من النقص بحيث لا يحتمل النقد . فأما ذهابه الى ان الوجود كله شيء واحد حي فهذا ما آلت اليه الفلسفة العلمية في هذا العصر ولكن ذهابه في تحميل الطبيعة تبعة الايجاد والابداع فما لا يفهم . فهل هو يعتبر الطبيعة روحا مدبرة للوجود تفكر وتعقل وتحاول الوصول الى غايات الخ الخ ام هو يعبر بهذه الالفاظ على أسلوب التوسع والتسامح ، وأما هو في الواقع فلا يعتبر أن في الوجود قوة اعلي منه تدبره أو تفكر له ، وانما هو يصف أدوار الخليقة علي ما تأدت اليه من

ذاتها لا بقصد قاصد ولا بتدبير مدبر .

يجوز أن يكون قصده هـذا أو ذاك ولكنه على أي حالتيه لا يحتمل النقد ولا يستحق المناقشة.

﴿ مذهب لامارك الفرنسي ﴾

نشر هذا العالم في سنتي (١٨٠٩ و ١٨١٠) كتابين احدهما (الفلسفة الزولوجية) أي فلسفة علم الحيوانات والآخر (التاريخ الطبيعي للحيوانات اللافقرية) بسط فيهما مذهبه في تكوّن الانواع فبـدأ الـكلام عنها بهـذا السؤال : ماهي الانواع ، تلك الطوائف الاولية في المملـكتين الآتيـين (يعني النباتية والحيوانية) ؟ وهنا بسط حيرة العلم وما يعانيه المؤرخ الطبيعي في تحديد الانواع المتجاورة . والح في بيان كثرة الانواع المشكوك فيها أي التى لا يمكن ان يتبين حقيقة انواعها وتغيراتها . ثم عاد من ذلك الي لفت الابصار للتدرج الذي تترجم عنه الانواع والاصول واستنتج من هذه المشاهدات ان الانواع ليس لها ذلك الثبات الذي يعزى اليها عادة .

ثم عقد فصلا خاصا استشهد فيه علي نظريته في عدم ثبات الانواع بأمثلة لتغيرات كثيرة مدهشة تحـدث بين حيواناتنا البيتية كالدجاج والحمام . ثم شرع في تفسير ذلك على مقتضي مذهبه الذي نلخصه للقارئ في أسطر قليلة

لامارك يفرق في مذهبه بين العالم والطبيعة، فالعالم عنده هو المجموع العاطل المجرد من القوة الذاتية وهو جملة الاجساد والمواد الموجودة . وأما الطبيعة فهي القوة العاملة المنزهة عن الفساد بطبيعتها التي لا تفتر عن التأثير في المواد طرفة عين ولـكنها مجردة عن العقل ومحكومة بقوانين . و بعبارة أوجز نقول كان لامارك يسلم بوجود مادة جامدة و بقوي مؤثرة عليها هي الاسباب الحقيقية لحـدوث جميع الظواهر الطبيعية . من بين هذه القوي واحدة تسمي (الحياة) ولـكنها عند لامارك ليست بقوة خاصة ولـكنها بنتيجة خاصة ببعض المركبات ، وجودها وقتي فيها ،

على أي أسلوب تسير الطبيعة في ايجاد الـكائنات ؟

قال لامارك :

« لاجل ان توجد الطبيعة كائناتها المباشرة تعمد الى تـكوين منسوج خلوي من الـكتل الصغيرة للمادة الجيلاتينية (الهلامية) التى تجدها تحت يدها ثم تملأ هذه الـكتل الخلوية الصغـيرة في الاحوال الموافقة بالسوائل المناسبة وتحييها بتحريك هذه السوائل بواسطة سوائل الطف منها طبيعتها التهييج تأتيها علي الاستمرار من البيئات المحيطة » .

فالطبيعة في رأي لامارك تولد بعض الكائنات توليدا مباشرا وهو ما يعبر عنه اليوم بالتولد الذاتي وهي تفعل ذلك فيما يختص بالحيوانات الدنيا كالنقاعيات ، وقد تولد كائنات أرقى من ذلك على هذا الاسلوب أيضاً . أليس مما يرجح هذا الرأي تولد الديدان في الامعاء كما يقول ؟

هنا نقول ان عذر لامارك في هذه الجرأة ان الميكروبات لم تكن معروفة في ذلك الحين ، ولو كانت لما استطاع إمام في العلم مثل لامارك ان يقول مثل هذا الـكلام الذي يضحك اصغر طلبة علم الطبيعة اليوم .

وهنا نلفت نظر القراء لهذه الحقيقة وهي ان كل المذاهب الفلسفية التي تستهويه بأصولها وتعبيراتها كلها مبنية على الدرجة (المحدودة) التي لنا من العلم بالكون فكلما اتسعت دائرة هذا العلم توسعت الفلسفة بقدرها وحذفت اخطاءها السابقة . وبما اننا لا نزال من العلم في الدرك الاسفل ، اللهم الاعـلاقات ضبطناها عن الـكائنات موجودة بينها ، ففلسفتنا مهما ظهرت لنا راقية مقنعة فانها لا تمثـل الحقيقة ولـكنها تمثل درجتنا من العلم الناقص ليس الا . وسننتقل من دور الى دور على مر القرون والله وحده يعلم الى اي مدي ننتهى في هذه الآماد المتعاقبة . وكل ما نريد أن ننبه اليـه القراء هو أن فلسفتنا التى نحني أمامها رؤسنا اليوم سيضحك منها خلفاؤنا كما نضحك

نحن من قول زعيم نظرية التولد الذاتي اكبر علماء وقته لامارك بتولد الديدان في الامعاء بفعل الطبيعة مباشرة .

***

كيف تنوعت الانواع بفعل الطبيعة في رأي لامارك وهي غير عاقلة والحياة نفسها عرض من أعراض المادة ؟

الأمر في نظره سهل ، قال :

من الجليّ ان الطبيعة لم تستطع ان توجد الحيوانات كلها دفعة واحدة . فان الطبيعة لاتوجد شيأ الا تدريجاً وببطء عظيم حتي قد يُدرَك تقدُمه الى الامام . فالكائنات الدنيا من ساعة خروجها من يد الطبيعة مؤلفة من المواد المتنوعة تحت تأثير القوي المختلفة وممتعة بأول شرارة من الحياة أخذت في الترقي ولا تزال تترقي الى اليوم . وهي تلك الكائنات الدنيا التى ولدت كل ما نراه فى المملكتين النباتية والحيوانية من الانواع التي لاتدخل تحت حصر على طريق التسلسل . فهى لم تنشأ طفرة كما يقول دومابيه ولكن بترق تدريجي في آماد لايمكننا حسبانها .

كيف حدث هذا الترقي فى هذه الكائنات الاولية ، وكيف تم التوفق التراكيب والحياة على مانشاهده اليوم في النباتات والحيوانات العليا .

حدث كل ذلك وتم بتأثير البيئة والاحوال وفعل المادة . فالطبيعة تتصرف فى المادة وفي الزمان والمكان تصرف المالك ولكنها مقيدة بقوانين لا تتعداها أهمها أربعة :

(أولها) الحياة بقواها الذاتية تميل باستمرار الى زيادة حجم كل جسم تحل فيه ولمد ابعاد انجزائه الي غاية محدودة . هذه الغاية هي الموت وهو التابع الطبيعي للحياة .

(ثانيها) كل مايحصله الجسم الحي من الصفات أو يتأثر به من التغيرات ينتقل

الى نسله و يظهر فيهم على ما كان عليه في آبائهم . وقد ابان لامارك في شرحه هـذا القانون بأن جملة التغيرات في مدي القرون توجد بين الاحيـاء تنوعات لاتقف عند حد .

(ثالثها) الجسم الحي اذا احتاج الى عضـو بتأثير أحوال البيئة تطلبه وانفعل للحصول عليه وتحرك حركات خاصة تحت فعل الحاجة اليه فيتعود ذلك والعادة في نظر لامارك هي الوسيلة العامة التي تستخدمها الطبيعة لتغيير اعضاء الحيوانات.

(رابعها) ان نمو الاعضاء وقدرتها على اداء وظائفها يكون دائما بنسبة استعمال هذه الاعضاء .

ومؤدي هذا القانون ان استعمال عضو من الاعضاء يقويه و ينميه واهماله يضره و يلاشيه .

ومن هنا يتبين ان لامارك لم يقل فقط بالترقي التدريجي بل بالتقهقر التدريجي أيضاً على حسب الاحوال

و بتطبيق هـذا القانون يسهل عليـك في نظر لامارك ان تفهـم كيف نشأت ذوات الثدى من الزواحف امثال التماسيح وكيف انقسمت الي ثلاث طوائف أصلية .

ظهرت ذوات الثدي أولا حاصلة على أربعة ارجل غيرنامية . بعضها ككلب البحر اعتاد التغذي بالحيوانات الحية . وهي لنشاطها في الصيد تجرأت عـلى التوغل في الارض فنشأت ذوات الثدى المتمتعة بالمخالب وهى اصول الحيوانات الضواري أو القراضة .

ومنها طائفة تعودت التغذي بأوراق الاشجار فصـارت اصولا للحيوانات المجترة .

وعند هذه وما تقدمها ضرورة الجولان في الارض لطلب الغذاء قوت عضلاتها وشدت اربطة ارجلها بجذوعها ووسعت حوضها الخ .

واليك أمثلة أخري تبين لك ما يراه لامارك من الفواعل في تغيير اشكال الحيوانات

الظاهرية والباطنية منها : الحيوان المسمي (توب) لميشته في الجهات المظللة وعدم حاجته الي البصر صار عادم العينين او ذا عينين اثريتين . ولحاجته الى التغذي بصيد النمل اخذ لسانه الشكل المعروف المناسب لصيد ذلك الحيوان

والحاجة الى القفز يبسط الاعضاء بشدة قوى عضلاتها الجانبية واوجد اجنحة للخفافيش وما يشاكلها .

ولم يجعل الثعابين ذوات اجسام ملساء مستطيلة مجردة عن الاعضاء الا وجودها في اماكن قضت عليها بالزحف والمرور من اماكن ضيقة .

والبط مثلا لم يوجد له ذلك الغشاء بين اصابع رجليه الا لاضطراره الي السباحة .

والهبرون الذي يكون بجوار البحار ما اكسبه هذه الارجل القوية الثابتة الا شعوره بضرورة الثبات واقفا مع شدة الفواعل القاضية عليه بالسقوط . أما عنقه الطويل ومنقاره الممدد فقضى بهما عليه حاجته الي تناول الطعام خطفا .

والضرورة قضت ان تطول عنق الظرافة الي هذا الحد لانها اضطرت لتناول اغذيتها من اوراق الاشجار العالية .

لماذا حدثت للضواري مخالب ؟ يقول لامارك لانها اضطرت للتغذي بلحم الحيوانات الحية واعتادت دس اصابعها في اجساد فرائسها لتمنعها من الافلات .

وقد كان تعليل لامارك للزائدة التي في رأس الجمل مبدأ لضحك كثير من جانب خصومه وسلاحا استخدموه ضد مذهبه .

قال في تعليل تلك الزائدة ان ذلك الحيوان الضعيف متي خرج من قوقعته واراد الانتقال احتاج لان يرود الارض التى امامه قبل ان ينتقل اليها فكان يشعر بضرورة مسها برأسه على نحو كثير من الحيوانات الدنيا فكانت تنتشر قوة عصبية في الجهة التي يريد اللمس بها من رأسه ويصعد اليها دم غزير . و بتكرر ذلك على طول الازمان نمت هذه الجهة وما زالت تنمو حتى تكونت تلك الزائدة التي تصلح تمام

الصلاحية لجس الارض امام ذلك الحيوان الضعيف .

فالجسم الحيـواني ليس بمحض كتلة قابلة للتحول في يد البيئة بل انه يؤثر في نفسه بقوة ارادته ايضاً .

هذا مذهب لامارك في جملته ونحن نلخص أصوله الاولية فيما يلي ليسهل مقارنتها بأصول خليفته دارون .

(١) التقاسيم المعتبرة في العلم الآن كالطوائف والصفوف والانواع الخ ليست طبيعية بل وضعية أي وضعها الباحثون فيها .

(٢) الانواع لم تتـكون الا شيأً فشيأً ووجودهـا نسبي و بقـاؤها محدود .

(٣) اختلاف الاحوال يؤثر في تكوين الحيوان باطناً وظاهراً .

(٤) الطبيعة في تكوينها الحيوانات بدأت من الادنى فما فوقه حتى انتهت الى الاعلى .

(٥) لا فرق بين النباتات والحيوانات الا في الحس .

(٦) الحياة عرض طبيعي وليست بأصل مستقل .

(٧) العقل منشأه الاعصاب .

(٨) الارادة الانسانية غير حرة بل مقيدة بمقتضيات الجسم .

﴿ مذهب دارون ﴾

ظهر هذا المذهب في سنة (١٨٥٩) وضعه شارل دارون العالم الانجليزي واطلع عليه بعض اخوانه قبل هذا التاريخ فاتفق ان العلامة الكبير الانجليزي (الفريد روسل ولاس) كان اذ ذاك ينقب عن حياة بعض الحيوانات والنباتات وغيرها بأستراليا فهدي الى ذات مذهب التحول بتأثير ناموس الانتخاب الطبيعي وهو مذهب دارون بعينه فأرسل بخلاصته لتنشر في مجلة الجمعية الملـكية العلمية فرأي أعضاء تلك الجمعية

ان العدل يقضي بنشر المذهبين في وقت واحد فتقرر ان يعزي المذهب الى داروين دون روسل ولاس لاعتباره سابقا .

هذا المذهب مؤداه ان اصل الانواع النباتية والحيوانية التى تغص بها هذه الارض جرثومة واحدة أوجراثيم قليلة تطورت من حال الي حال تحت تأثير فواعل مختلفة طبيعية محضة حتي وصلت الي ما نراه من التنوعات التى على رأسها الانسان .

فهو لا يقول ان اصل الانسان القرد الموجود الآن ولكن حيوان بين القرد والانسان لم يعثر على هيكله في الاحافير للآن أما القرد فان داروين يعتبره نهاية ترق لفرع من أفرع الشجرة الحيوانية .

وقد بني داروين مذهبه على أربعة اصول طبيعية مشاهدة وهي .

(١) قبول الاحياء التغير بمزاولة الحياة .

(٢) انتقال هذه التغيرات الي النسل من طريق الوراثة.

(٣) تنازع الاحياء البقاء .

(٤) بقاء الاقوي والاكمل من المتنازعين وضمور الاضعف وتلاشيه

هذه العوامل هي التي تولت اول جرثومة حية وما زالت بها حتى اوجدت منها هذا التنوع الخطير الذي على رأسه الانسان .

لم يرد داروين ان يبحث فى اصل الحياة ولا فى كيفية وجود الجرثومة الاولي لهذه الاحياء واكتفي بأن يعزو ايجادها للخالق لصعوبة بحثها من طريق العقل والمشاهدة فكان من هذه الوجهة احكم من جميع من تقدموه وعقبوه فأنهم خفوا تحت تأثير الالفاظ الخلابة حتى خيل اليهم انهم أدركوا سر الخليقة وعابوا على داروين تحفظه وتحرجه . ولكن لم يلبث سلطان هذا الانخداع اكثر من نصف قرن حتي تبين للباحثين وهن هذه الاصول فعادوا الي مذهب لامارك لا لانه يعتبر انه الحقيقة ولكن لانه اقل مناقضة للمشاهدات . وقد استقر فى روع العلماء ان هذين المذهبين وما ماثلهما لايحلان رمز الخليقة ، ولا يعللان قيام اصغر تركيب آلى في الطبيعه .

ونحن قبل ايراد آراء هؤلاء العلماء نبسط لمذهب داروين على مايقرره هو

بمثال محسوس :

فاذا افترضنا وجود سرب من الابقار الوحشية فى غابة تسير متحدة كعادتها للبحث عن غذائها فان لاح لها مرعي تزاحمت عليه وتنازعته وفازت بأطايبه أقواها واصبرها فالذي يحدث من ادمانها على هذا العمل ان اقواها تزداد قوة على قوتها واضعفها يزداد ضعفا على ضعفه . وهذا معني ناموس تنازع البقاء وفوز الاقوي .

فان ازعج هذا السرب من موطنه واضطر للانتقال الى مدي بعيد مارا بوعور ووعوث ومجاهل لايقوي علي اختراقها الا المتازون بالقوة والجلد لم يبق من هذا السرب بعد أن يصل الى مأمنه الا الافراد ممن امتازوا بهذه الصفات وهذا مؤدي ناموس الانتخاب الطبيعى و بقاء الاصلح .

وهذه الطائفة الباقية لايتولد منها الا افراد حاصلون علي ارقي صفات سربهم الممتاز . فان اتفق وجودها في بيئة جديدة فيها أحوال معيشية لم تعتدها وفواعل طبيعية لم تألفها حدث انتخاب طبيعي جديد ولم يبق على قيد الحياة الا الممتازة بصفات عليا من الجلد والضلاعة، فاذا أدمنت الفئة الباقية المعيشة فى هذه البيئة الجديدة اضطرت بحكم تغير الاحوال والفواعل الي اكتساب صفات جديدة جسدية ونفسية تناسب هذه الاحوال والفواعل . وهذا فحوي ناموس قبول الاحياء للتغير على حسب البيئات التى توجد فيها. ولاشك بأن النسل الذي يأتي منها يولد حاصلا علي تلك الصفات الجديدة المكتسبة ويورثها وأيضاً نسله وهلم جرا فتصبح ثابتة في النوع . وهذا مغزي ناموس الوراثة .

فالخلية الاولى التي تكونت منها هذه الاحياء كلها تكاثرت اولا بحكم طبيعتها فصارت نباتات دنيئة أو حيوانات دنيئة فتولتها النواميس الاربعة التى ذكرناها قرونا تعد بعشرات الالوف فلبثت تتنازع البقاء فلا يبقي منها الا الاصلح ثم تتغير عليها البيئة فتكتسب صفات جديدة تورثها ذرياتها فيحدث فيها تنوع تباين به غيرها مما هي فى بيئات اخري وهلم جرا حتي تكون من هذه الجرثومة الاولى كل ماتراه ماثلا أمامك من سكان هذه الارض .

﴿ الاعتراضات على مذهب دارون ﴾

لم يعترض على مذهب من المذاهب قدرما اعترض على مذهب دارون ولم ينشب مذهب في العقول ويؤثر على الاخلاق والميول مثل مانشب وأثر مذهب دارون، وهو مبني على أصول تعتبر من المجربات اليومية لكل انسان وكل مافي اعمال الناس ومحاولاتهم ادلة حسية على صحة تلك الاصول لذلك انتشر هذا المذهب بين الطوائف حتي العامية وراج في عقول اكثر العلماء في أول الامر ولكنهم لا يسلمون برجحان نظرية حتي يعودون اليها ليستنفدوا كل مايسعه البحث والتنقيب فلما جروا على عادتهم مع مذهب دارون تبين لاكثرهم وهن اصوله وضعف مابني عليها ولكن كيف يفهم العامة ذلك وقد انتشرت بينهم كلمات تنازع البقاء و بقاء الاصلح وقانون الوراثة الخ الخ حتي صارت سمجة مبتذلة .

ونحن لا نريد من قولنا ان أهل العلم تبينوا وهن أصول مذهب دارون انهم أصبحوا يقولون بالخلق المستقل فهذا مالايقول به الا الشاذ من أهل العلم اليوم ، ولكنهم أصبحوا يرون لتسلسل الاحياء بعضها من بعض نواميس أخري غير نواميس دارون بل اكثرهم مآل اليوم الى مذهب لامارك . اما الاعتراضات على مذهب دارون فمنها قديم تبين للناقدين بالبداهة . ومنها حديث نتج من الابحاث الجديدة ونحن نعرض القديمة أولا ثم نتبعها بالجديدة فنقول .

تنحصر الاعتراضات القديمة على مذهب دارون في ثلاثة امور كلية وهي :

(أولا) نكران الارتقاء في الاحياء ومؤداه ان الحيوانات الدنيا هي اليوم على ماكانت عليه لم يشاهد فيها ارتقاء ما ، وان الاحياء العليا والسفلى توجد معاً في جميع الطبقات الارضية . فلو كان مذهب الارتقاء صحيحاً لاقتضى ان يوجد الادني منها قبل الاعلى ، والذي شوهد العكس فقد وجد بين أقدم الصور المستخرجة من باطن الارض ماهو بالغ من التركب درجة عالية .

فرد عليهم أنصار مذهب دارون بقولهم : ان وجود صور ذات تكوين عال في الطبقات القديمة جداً للارض لاينقض مذهب دارون بل يبعد أصل الحياة ومتفرعاتها الى أزمنة أبعد وأدوار جيولوجية أقدم . واننا لم نكتشف الآن أقصى الطبقات الارضية ثم ان الاحياء الدنيا التي نشأت منها الاحياء العليا يستحيل ان تحفظ أجسادها في باطن الارض ملايين من السنين لصغرها من جهة ولقلة مقاومتها لعوارض الطبقات الارضية من جهة أخري .

ولكن قد ثبت بما لايدع شكا لشاك ان عالم النبات سبق عالم الحيوانات والحيوانات عادمة الفقر سبقت الحيوانات الفقرية التي هي اعلى منها رتبة . وما كان من الاصل الفقري أتم واكمل جاء بعد ما كان منه دونه . فجاءت الحشرات بعد الاسماك ، وذوات الثدي والطيور بعد الحشرات ، والانسان بعد الطيور ولا يعلم انه حصل عكس ذلك البتة .

(ثانيها) نكران الصور المتوسطة بين الانواع . قال خصوم دارون لو كانت الانواع النباتية والحيوانية مشتقا بعضها من بعض لكان بين كل نوعين منها صور متوسطة .

فرد الداروينيون على هذا الاعتراض بقولهم ان الصور المتوسطة بين الانواع الحية كثيرة ومما يدل عليه حيرة العلماء في عد الانواع فقد عد بعضهم من نوع الهراسيوم في المانيا ٣٠٠ نوع وحسبها الاستاذ فرسنل ١٠٦ وجعلها لوك ٥٢ وهكذا الشأن في جميع الانواع وما ذلك الا لعدم وجود حد فاصل بينها .

ثم قالوا ان الصور المتوسطة ان عدمت بين كثير من الانواع الحية فبسبب انقراضها بسرعة لان تنازع الحياة يشتد كلما تقاربت الصور ويكون نتيجة ذلك ملاشاة الصور المتوسطة فلا تبقى الصور المتباعدة التى لا تظهر انها من نوع واحد .

أما الصور المتوسطة في الكائنات الاحفورية التي وجدت في باطن الارض فكثيرة جدا وكل يوم يكتشف منها عدد كبير .

(ثالثها) طول الزمان اللازم للانتقال ، قالوا اذا كان قد مضي على العالم نحو سبعة آلاف عام منذ دون التاريخ ولم يشاهد أدني تحول في الانواع فكم عدد السنين التى مرت على الخلية الحية الاولى حتي نشأت منها كل هذه الكائنات المختلفة التى في قمتها الانسان .

وقد شعر دارون نفسه بخطورة هـذا الاعتراض فقال : ان السير وليم طمسون يزعم ان الارض لم تيبس قشرتها قبل أكثر من مائتي مليون سنة وهذا الزمان غير كاف لبلوغ الحياة الى حالاتها الحالية بالنشوء والارتقاء فان صح مذهبي فلا بد ان يكون الزمان الذي مضى قبل تكون الطبقات الكبرية الارضية السفلي طويلا جدا وربما كان اطول منه بينها و بين اليوم .

و يرد أنصار مذهب داروان هذا الاعتراض بقولهم ان تحديد السير وليم طمسون وغيره ظني وليس في وسائلنا اليوم ما يمكننا من تحديد عمر الارض بالضبط .

الاعتراضات الجديدة على مذاهب التحول

مع عدم وجود عالم يعتد به يقول بالخلق المستقل الآن فان جمهور الباحثين اليوم أدركوا ان كل النظريات التي افترضت في تفسير تسلسل الكائنات الحية بعضها من بعض لاتمثل الحقيقة ، ولا تروج الا في اذهان الذين يقنعون بالالفاظ الضخمة. وهذا التوقف من اهل العلم اليوم أثر من آثار تخلص العقل من سلطان الخداع العلمي السابق وهو الخداع الذي أوهم بأنه أدرك سر الوجود ووقف على جميع مساتيره بفضل الفلسفة المادية والعلم الطبيعي .

وقد حصر العلامة الدكتور (جوستاف جوليه) من كبار علماء فرنسا الامور التى لم تحلها مذاهب التحول الرسمية سواء أكانت داروينية أولاماركية أوغيرها في

خمسة امور هامة وهي منقولة عن كتابه (من لاشاعر الي شاعر)

(١) العوامل التي فرضها العلم الرسمي تعجز عن تعليـل وجود الانواع .

(٢) تلك العوامل تعجز عن تعليل وجود الالهـام عند الحيوان

(٣) تلك العوامل تعجز عن تفسير تلك الاستحالات الفجائية الموجودة لانواع جديدة .

(٤) تلك العوامل تعجز عن تعليـل ذلك الرسوخ المباشر النهائي للصفات الاصلية للانواع التي تتكون حديثا وتعجز ايضاً عن تعليل نشوء الالهامات الجديدة فيهـا (وقد ثبت ان انواعا جـديدة لاتزال تخلق للآن كما ستراه) .

(٥) تلك العوامل تعجز عن حل هذه المعضلة الفلسفية الخاصة بمذاهب التحول وهي : كيف يخرج المركب من الساذج وينشأ الاكثر من الاقل ؟

ثم أخذ الدكتور (جوستاف جوليه) يفيض في بيان وجوه هذا العجز في نظريات التحول عن تعليل الامور المذكورة مما لانستطيع اثباته هنـا لان غرضنا ليس اثبات فساد مذهب داروين ولـكن التدليل على ان العقل الانساني خرج من سلطة الدعوى العلمية البـاطلة فأصبح لا يستهويه شيء من الالفـاظ الضخمة والتعبيرات المنمقة . وهذا الغرض يكفي فيه نقل آراء العلماء في ذلك ليس الا .

والذي نريد بيانه هنا على عجل ان مذهب داروين الذي كان انتشر هذا الانتشار المدهش عقب ظهوره قد فقد سلطانه اليوم واصبح الناس يميلون الي مذهب لامارك لا باعتباره الحقيقة المطلقة بل باعتباره افضل من مذهب داروين .

قال الدكتور (جوستاف جوليه) المذكور في كتابه المتقدم صفحة ١٢ :

« قد أصبحت الغالبية العظمى من العلماء الطبيعيين يشايعون النظرية اللاماركية التي تحاول ان تحيل مذهب التحول كله الي تأثير الوسط . وما مـذاهب (كوب) و (باكارد) بأمريـكا و (جيـارد) و (لودانتـك) في فرنسا الا لاماركيـة الصيغة .

وقال الدكتور المذكور في صفحة ١٧ من كتابه المذكور.

« يري مما تقدم ان اللامارکية والدارونية تستويان في العجز عن اعطاء تفسير عام صالح ينطبق على كل الاحوال عن ظهور الانواع الحية » .

ثم أخذ العلامة (جوستاف جوليه) يفصل نقص (اللاماركية) فقال :

« تستطيع اللاماركية ان تفسر لنا ظهور طائفة من الجزئيات العضوية الثانوية والتغيرات المتخالفة في القيم كضمور عيني الحيوان المسمي (التوب) وتضخم الوسطي من اصابع الحيوان المسمي (ايكيدي) أو التركيب الخاص لمفاصل رجله .

« ولكن هذا المذهب باطل من جهة كونه نظرية عامة لانه يعجز عن بيان الحوادث الاكبر قيمة . فهو لايفسر التحولات الكبيرة التي تكلمنا عنها في تقد لمذهب الداروني فكلاهما يستوي في القصور لان هذه التحولات تستدعي تغيرات أصلية وهي تغيرات مباشرة لامجموع تغيرات تافهة بطيئة .

« فالتحول من الحياة المائية الي الحياة الارضية ، ومن الحياة الارضية الي الحياة الهوائية لا يجوز على الاطلاق ان يعتبر نتيجة لناموس المطابقة .

فالانواع السالفة التي تناسب البيئات الخاصة لم يكن بها من حاجة الى تغيير ماهي عليه وان كانت أحست بحاجة الى ذلك لما استطاعت ذلك .

« فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور ان يتناسب والبيئة التي ليست له ، ولا يمكن ان تكون له الا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف الي صورة عصفور . فكان لا يستطيع قبل ان تكون له أجنحة ، اجنحة نافعة لا أثرية ، ان تكون له حياة هوائية وان يتناسب معها .

« وتنطبق تشبه النظرة المتقدمة على تحول السمكة الى باترسيان (الباترسيان طائفة من الحيوانات الفقرية على رأسها الضفدعة) .

« ولكن المجال الذي يظهر فيه بوضوح استحالة التحولات بواسطة التناسب هو تطور الحشرة . اذ لا توجد اية علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة التي تمثل على حالة مّا الصورة الاولي للحشرة الاولية و بين الحشرة الكاملة . ولم يتوصل احد الي ادراك تلك السلسلة الغامضة من التناسبات التي بها أمكن لحشرة تعودت الحياة الدودية تحت الارض أو فى المياه ان تصل شيأ فشيأ الي ايجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة منها .

« ومتى فكر الانسان فى ان هذه السلسلة الغامضة من التناسبات تحققت لا مرّة واحدة علي سبيل الاستثناء بنوع من الآيات الطبيعية ولكنها حصلت بقدر عدد أنواع الحشرات ذات الاجنحة ، يدع الانسان كل أمل فى تعليل ظهور اجناسها بالفواعل اللاماركية كما رفض فكرة تعليلها بالفواعل الدارونية .

ثم قال :

« من هنا نري ان اللاماركية والدارونية تستويان فى العجز عن اعطاء تفسير عام يمكن تطبيقه على جميع الاحوال من ظهور الانواع .

« واذا كان اكثر القائلين بنظرية التحول لم يدركوا ذلك للآن فان قوما منهم يعترفون به و يجتهدون في ان يجدوا في غير هذا المجال العامل العالى في التحويل ، الصالح لتذليل كل هذه الصعوبات الملازمة للعلم الطبيعى الرسمى .

« فبعض اللاماركيين الجدد من امثال (بولى) ينسبون الي عناصر الجسم والى الجسم نفسه سواء أكان نباتياً أم معدنياً نوعاً من الشعور القوي . وهذا الشعور القوي كان العامل الاصلي في احداث كل التغيرات والتناسبات وذهبوا الى انه يوجد فى جميع درجات السلم التحولي جهد مستمر ومقصود لاحداث التناسب مع البيئة .

« أما (نايجلي) فهو اكثر تصريحاً فعنده ان الاجساد تحوي نوعين من

البلاسما (أي المادة الحية) ، البلاسما الغاذية العامة لجميع الانواع لا مخالفة ولا نوعية ، والبلاسما النوعية وسماها ايديو بلاسما .

« وهذه الايديو بلاسما تحتوي لاعلى الميسليانيه التي تميزها فقط ولكن على ميل باطني أيضاً للترقي وعلى كل الصلاحيات والقابليات للتحول والتكمل . وهذه القابليات قد وجدت منذ وجود الحياة فى الصور الحية الاولية . والعوامل الخارجية والحالة هذه لايكون عملها غير تسهيل تناسبها مع البيئة . ولكن هذه العوامل تعجز هي في ذاتها ان توجد الترقي . » انتهي

من هنا يرى القاريء ان النظريتين الدارونية واللاماركية اللتين اغتر بهما العقل البشري عشرات من السنين ولا يزال ينخدع بهما كثير من الذين تلقنوهما أوتلقفوها بالشهرة قد فقدنا كل ما كان لهما من سلطان على العقول وسترى فيما يلي الى أي مدي وصل العقل البشري من خلع نيريهما . كل هذا حصل في عالم العلم الغربي ولا يزال الشرقيون الذين يدعون أنهم فى طليعة النهضة العلمية يجعلون الدارونية عمدتهم فى كل تعليلاتهم حتي في شؤنهم الادبية .

﴿ ثبوت فساد أصول اللاماركية والدارونية ﴾

بالتجارب العملية

قال العلامة الدكتور (جوستاف جوليه) في كتابه من (لاشاعر الى شاعر) المطبوع سنة ١٩٢٠ :

« اللاماركية والدارونية توجبان القول بأن تغيرات بطيئة وصغيرة لا يمكن حصرها حدثت فتولدت منها الأنواع على سنة التدريج .

« هذا القول الذي اعتبر من العقائد الراسخة يظهر للقائلين بهاتين النظريتين انه فوق كل جدال .

« ولكن ما عتم الناس حتي جاء أخيرا (دوفري) فأعلن مشاهدات فيما سماه

الانتقالات أو الظهور الفجائي لانواع نباتية جديدة طفرة بدون مرورها علي صور تدريجية متنزلة من صور اسلافها الاولية ، فكان لهذا الاستكشاف عند المشتغلين بالفلسفة الطبيعيه أثر كبير من التشويش والارتباك.

ثم نقل الدكتور (جوستاف جوليه) قول الاستاذ البيولوجي الكبير (لودانتك) وهو مدرس علم الحياة بجامعة السوربون البآريزية وهو مأخوذ من كتابه المسمي (ازمة مذهب التحول) .

« قد ظهرت منذ عدة سنين نظرية جديدة مؤسسة على تجارب ممحصة شايعها عدد عديدمن عالم العلوم الطبيعية . والحال انهذه النظرية المسماةبنظرية الانتقالات أو التحولات بالطفرة تعتبر انكارا للاماركية بل تكاد تكون انكارا لاصل التحول نفسه » .

ثم عاد الدكتور (جوستاف جوليه) الى تفصيل مذهب (دوفري) فقال :

« المسألةالوحيدة التى يجب حلها هي:أهذه الانتقالات الفجائيةفيالتحولقاعدة أم استثناء ؟

« يقول (دوفري) بصراحة ان التحولات الفجائية هي القاعدة في عالمي الحيوانات والنباتات . وهو محق فيما يقول . فاذا امتحن الانسان جميع التاريخ الطبيعي بدقة فى سلم الارتقاء ادرك أن نظرية التحول بالطفرة تصادف في كل مكان مايؤيدها .

« فهناك حقائق ظاهرة العيان ولكنهم كانوا لايريدون ان يروها أو كانوا يخفونها عن الانظار بغير شعورهم ، قد ظهرت الآن ظهوراً بيناً وامتحنت امتحاناً مدققاً .

« وقد كان اعلن هذه الحقائق الطبيعيون الكبار من امثال جوفروا سان هيلير ولكنها لم تسد علي العقول . وعليه فمذهب التحولات البطيئة لمتجد مناقضاً لهاحتي ظهرت اعمال (دوفري)

« وجاء (كوب) فاعتمد على نظرية التحول بالطفرة واعاد دراسة الصور الحفرية وبخاصة الصور الحفرية (للبآتراسيان) وذوات الثدي بأمريكا ولم يجد صعوبة في ترجيح حدوث تغيراتها نحو الارتقاء من طريق الطفرات .

« ومن السهل اذا اعتمدنا على المستندات الحفرية التي تؤلف سجلات الخليقة ان نشاهد دائما الظهور الفجائي للانواع الكبيرة الرئيسية . فالبآتراسيان والزواحف والطيور وذوات الثدي تظهر فجأة في الاراضي الجيولوجية . ويظهر انها بمجرد ظهورها تحصل بسرعة علي صفاتها وتحفظها بعد ذلك كاملة ولا تكابد بعدها تغيرات اصلية مادامت أنواعها حية .

ثم قال :

« بينا علم الحفريات يرينا كثيرا من الاعضاء الأثرية في اجساد الحيوانات الحية وهي اعضاء بطل استعمالها وعدمت فائدتها فلا يعطينا قط مثالا واحدا لاعضاء آخذة في التكون ولا تزال لاتصلح للاستعمال .وعليه فيظهر ان التحولات الفجائية هي القاعدة في ترقي الاحياء . ولقد اتضح الآن ان ناموس الانتخاب الطبيعي ولا تأثير الوسط لايستطيعان تفسير الظهور الفجائي للانواع الجديدة » انتهى ما قاله الدكتور جوستاف جوليه .

* * *

ان استكشاف (دوفري) قد احدث انقلابا في نظريات علم الحياة ومذاهب التحول لم يكن يخطر على بال احد . وهو ليس بنظرية جديدة بل هو مقررات تجريبية محسوسة وضع فيها كتابا ضخما لاسبيل الى بسطه هنا ونقلنا اعتراف الاستاذ (لودانتك) بذلك وقد كان من اشد انصار نظرية دارون ثم انقلب الى مذهب لامارك كاكثر العلماء المعاصرين لنا . فأين الجامدون هنا علي مذهب دارون من هذه الانقلابات

القريبة ؟

ان استكشاف (دوفري) هذا لا يؤدي الى القول بالتولد الذاتي أي بالخلق المستقل بل مؤداه ان التحول في الاحياء لم يحدث بطريق نظرية داروين من الانتخاب الطبيعي الآلي ولا بطريق نظرية لامارك من تأثير البيئة وحدوث التناسب التدريجي بين الكائنات والبيئات، بل بطريق الطفرة . أي ان القوة المدبرة للكون اوجدت الانواع المختلفة بعضها من بعض على سنة الطفرة . فلأجل ايجادها للانسان مثلا حولت جرثومة القرد في رحم القردة الى جرثومة انسانية فجاء ولدها انسانا لا قردا وصار نوعا قائما بذاته . لا ان الانسان نشأ بلا قصد من تأثير ناموس الانتخاب الطبيعي على القردة او على حيوانات أخرى بابقاء الاصلح وباكتساب صفات وميزات جديدة على سنة التدرج البطيء في الوف القرون كما يقول داروين، أو بتأثير البيئة كما يقول لامارك .

﴿ حياة الحشرات تنقض نظريات ﴾

التحول الطبيعي بالحس

قال الدكتور (جوستاف جوليه) في كتابه (من لاشاعر الي شاعر) المذكور آنفاً .

« يكفي ان يتأمل الانسان في حياة الحشرة بعناية ليدرك بطلان النظريات القديمة والحديثة في وجود الانواع وترقيها .

«فان الحشرة بظهورها من اقدم عهود الحياة الارضيه وثبات انواعها في جميع الاحوال بعد بروزها تناقض ما يُذهب اليه من التحولات المستمرة البطيئة غير المتناهية .

« وتقوم ضد نظرية الترقي بالعوامل الرسمية من الانتخاب الطبيعي والتناسب مع البيئة شهادة الحشرة بوجود الهوة التي تفصل بينها و بين ما كانت عليه من الحالة

الدوديه" الحقيرة ، وهي هوة تضيع فيهـا ولا كرامـة" جميع النظريات الداروينيـة" واللاماركيه" . وتقيم الحشرة كذلك ضد هذه النظريات امرا عجزت عن تفسيره وهو غرائزها الاوليه" العجيبة" المحيرة للعقل .

«وتقوم أيضاً ضد ما يُذهب اليه من التطور بفعل الفواعل الخارجية شهادة الحشرة بتطوراتها الهائلة ، تلك التطورات الذاتية داخل شرنقة مقفلة محمية الى حد بعيد من تأثير هذه العوامل الخارجية .

«وتقيم الحشرة أيضاً ضـد نظرية التطور المستمر غير المنقطع بالتمثيل الوظيفي شهادتها بتطوراتها واستحالاتها وتغيراتها في الترقي أو التدلي مدة حياتها الدودية. وانها لتنقض بخاصة تلك النظريات وهي داخـل شرنقتها بظهورها بهذا الحـدث الذي لايعقل وهو احـالة اكثر أعضائها الي سيال لا شكل له قبيـل دخولها في شـكلها الاخير .

«هذه الشهادة المحيرة للعقل بتعليمنا بأنه لاتغيراتها الديدانية الهائلة ولا تلاشي أنسجتها تؤثر على شكلها المستقبل كحشرة كاملة. هذه الشهادة تنقض جميع مدركاتنا على بناء الاجسام وعلى تحولات الانواع .

« فالحشرة تهبنا والحالة هذه في مجموع أدوارها الحيوية رمزا عن ماهية التطور في الحقيقة كما ستري ذلك . فانها تثبت لنا بأن سبب التطور لايجوز ان يبحث عنـه لا في تأثير البيئة ولا في التأثيرات المضادة له من المادة الآلية ، ولـكنه مستقر في حركة علوية مدبرة مستقلة عن هذه المادة العضوية .

« والحشرة ترينا التطور حاصلا بخاصة بتأثير داخلي متميز عن تأثير البيئة المحيطة بها ، و بدافع اولي محقق ولـكنه مجهول عندنا ، وهو عند الطبيعي الرسمي لا يمكن تفسيره على الاطلاق .

« ليس هذا كل مايقال فان هذه الشهادة التي لامثيل لها من الحشرة في الحين الذي تنقض فيه النظريات الطبيعية العصرية تناقض كذلك المذهب القديم القائل بحدوث الخليقة تحت اشراف العناية الالهية.

« ذلك لان الوصف المميز للحشرة من الوجهة النفسية هو ان لها غريزة تكاد تكون مجردة من كل أثر للادراك . والمشاهد ان هذه الغريزة المحضة والتى بقيت محضة في مدي مئات القرون تمتاز بوحشية مموهة ، وحشية هائلة لانظير لها في بقية العالم الحيواني ، ومع ذلك فالحشرة بريئة منها كل البراءة .

« فاذا قيل بوجود خالق شاعر بتبعة تصرفاته فتكون هذه الوحشية من عمله وتكون حالة الخليقة كلها مرآة لاعماله » انتهي كلام الدكتور جوليه .

نقول ان هذا العالم لاينكر وجود قوة مدبرة خلقت الكائنات ولكنه يفرضها قوة لا شاعرة ، وانما توصلت الي الشعور بذاتها في كائناتها كالانسان وغيره .

أما كلامه عن شهادة الحشرة فيشير الى تلك الظاهرة المدهشة التى تتجلي في حياة الحشرة ولنضرب مثلا لذلك بدودة القطن فهى تولد دودة تحيا اياما حياتها المعروفه ثم تنسج لنفسها شرنقة فتدخل فيها وهناك لاتموت فقط بل يسيل جسمها و يستحيل الى مادة أولية لاشكل لها ثم تتركب هذه المادة بنفسها فتكون جسما لا نسبة بين شكله وشكل الدودة تكون فراشة ذات أجنحة وغرائز أخري غير غرائز الدودة .

هذا المثال وحده ينقض كل نظريات الدارونيين واللاماركيين المؤسسة علي ان اختلاف الاعضاء وتطورها وارتقاء الانواع واشتقاق بعضها من بعض لايكون الا على مقتضى نواميس سموها بأسماء متنوعة . والحقيقة ان كل نوع نشأ كما نشأت الحشرة بفعل قوي ليست من القوي الطبيعية المعروفه . وأي شاهد أصدق من هذا الشاهد المحسوس .

والعقل العصري معذور في استخفافه بالنظريات العلمية المقررة ، فقد طال عليه زمن الانخداع بالالفاظ الاصطلاحيه الضخمه وأصبح اليوم وهو مقتنع جدا لاقتناع بأن كل هذه النظريات التعليليه اوهام باطلة تصد عن سبيل الحقيقه التي ينشدها ، وقد دخل بهذا الادراك في دور جديد سيكون فاتحه عهد هو اكرم عهوده العقليه ، وأسرعها ايصالا له الي الحقائق الاوليه .

﴿ مذهب دارون في نظر دارون ﴾

من الناس من يؤمن بحقية مذهب دار ون ايمانا لا حدّ له ، يخيل اليه انه حل معضلات الخليقة حلا لامطمح بعده لطامح ، وعذره في ذلك انه يجهل الطبيعة ، ولا يدرك قيمة النظريات من جهة تعليلها للحوادث لانه يجهل سلسلة تلك الحوادث ولا يعرف الا مايقع تحت نظره منها . على ان دارون نفسه كان يدرك ان نظريته لا تفسر وجود الانواع تفسيرا يثلج عليه الصدر ، وتطمأن له النفس ، و يري ان لا بد من وجود عوامل أخري خفية اشتركت مع ناموس الانتخاب الطبيعي في تنويع الاحياء فقد قال في صفحة ٥٦٥ من كتابه (اصل الانواع) :

« أنا مقتنع بأن ناموس الانتخاب الطبيعي كان العامل الرئيسي لحدوث التنوعات في الانواع ولكنه لم يكن العامل الوحيد في احداث ذلك التغير »

وكتب دارون الي المستر (هيات) وقد جمع هذا الكتاب مع بقية كتبه في مجموعة تدعى (كتب داوون) أي رسائله قال :

« اسمح لى أن أضيف الي هذا بأني لست من قلة العقل بحيث اتصور بأن نجاحي يتعدي رسم دوائر واسعة لبيان أصل الانواع »

﴿ ماسبب انتشار الداروينية ﴾

على فسادها

من العجيب ان مذهبا كمذهب لامارك أو دارون يكون فيه من وجوه النقص ما يجعل صاحبه نفسه يزري به ينتشر هذا الانتشار الكبير و يجد له انصارامتحمسين من درجة متحمسي الاديان في العصور البعيدة .

علل ذلك الفيلسوف الكبير (ادورد هارتمان) الالمانى خليفة شو بنهور في كتابه (المذهب الداروني) فقال في صفحة ١ منه :

« ما أثر فى سرعة نشر المذهب الداروني اكثر من الحمية التى كافحه بها علماء اللاهوت من كل مذهب متحدين مع الفلسفة الرسمية ، فاقتضي الحال اذا ذاك ان يظهر ازاء هؤلاء الخصوم الذين لا يستندون الا علي براهين وهمية وغير علمية خصوم آخرون شديد والتعصب لنظرية دارون حملتهم غيرتهم الشديدة بأن يستنتجوا منها نتائج لم ينوه بها صاحبها الا من طرف خفي أو اخفاها عمدا . فكانت هذه الجرأة من هؤلاء دافعة لخصومهم على الاستبسال ، وجاءت الفلسفة المادية من جهة اخري فتقمصت روح الداروني لفائدة مذهبها . »

« أما في العالم العلمي فقد تقرر من الوجهة التى اختير السير عليها فى ذلك الحين انه من المستحيل مكافحة هذه النظريات الجديدة وانه يجب علي أي حال من الاحوال احناء الرؤس اجلالا لها ، ولم يبق الا علماء طاعنون في السن فقدوا المرونة العقلية الكافية لاعادة بناء معارفهم ظهروا في غاية الاستعصاء عن التأثر بالداروني . أما العقول الراجحة التي كانت تحاول التمييز بين الحق والباطل من هذا المذهب الجديد فكانت نادرة جدا . وكانت أصواتهم تضيع بين الضوضاء المنبعثة من المعركة التى شبت نارها بين انصار الداروني المتحمسين وبين خصومهم المتعصبين »

﴿ رأي فون باير في الداروني ﴾

فون باير هو العلامة الالماني الكبير مؤسس علم الامبريولوجيا (علم الاجنة) وهو من اقطاب الفزيولوجيين والحفريين والبيولوجيين قال في كتابه المسمي (دحض المذهب الداروني) في طبعته الثانية الصادرة فى سنة ١٨٨٦ .

« ان الرأي القائل بأن النوع الانساني متولد من القردة السيمانية هو بلاشك أدخل رأي فى الجنون قاله رجل على تاريخ الانسان . وجدير بأن ينقل الي اخلاقنا جميع الحماقات الانسانية مطبوعة بطابع جديد . يستحيل ان يقوم دليل علي هذا الرأي

المضحك من جهة المكتشفات الحفرية » .

وقال في ختام كتابه المسمى (خطابات ومباحث علمية) .

« انا لااتمالك نفسي من التصريح لرجال العلم بأن فرضاً من الفروض لاتكون له قيمة ولا سبيل في البقاء الا اذا عاملناه معاملتنا لسائر الفروض أى بجعله كنقطة يُتوجه منها الي مباحث خاصة . ولكن من الشؤم والانحطاط ان نعتبر فرضامن الفروض آخر كلمة للعلم وهو مجرد كل التجرد عن الوسائل التي يثبت بها نفسه . ان علمنا مؤلف من قطع واجزاء فتكميل هذه القطع بواسطة الافتراضات يمكن أن يؤدي الي ارتياح شخصي ولكن لايكون هذامن العلم في شيء » .

﴿ رأي الاستاذ بر ير في مذهب دارون ﴾

قال العلامة بر ير في كتابه (طوائف الحيوان) المطبوع سنة ١٨٨١ .

« ان الاسباب الاولي التي احدثت الاختلافات الشخصية والتي لابد من انها كانت كثيرة جدا لاتزال مجهولة و يجب تعينها وتعيين سبب العقر الناتج من تصالب الانواع وكذلك المسافات التي يلزم قطعها من النقاعيات حتي الانسان شاسعة جدا » .

ان بر ير كاكثر العلماء مع اعتراضهم على مذهب دارون لا يقولون بالخلق المستقل ولكنهم يرون ان مذهب دارون يقصر عن تعليل هذا التسلسل بدليل قول بر ير بعد ذلك :

« ان هذه مسائل يجب اكتشافها ولا يصح ان تكون اعتراضات علي مذهب التسلسل فأي مذهب كيماوي او طبيعي لا اعتراض عليه »

﴿ رأس العلامة فيركو في مذهب داروين ﴾

الاستاذ (فيركو) الالماني من اعلام علم الانترو يولوجيا (التاريخ الطبيعي للانسان)

نقض مذهب داروں ووافق العلامة الانتريولوجي الفرنسى الكبير (دوكاترفاج) فى كتابه (النوع الانسانى) الصادر فى سنة ١٨٧٧ قال :

« يجب عليّ ان اعلن بأن جميع الترقيات الحسية التى حدثت في دائرة علم الانترو بولوجيا السابقة علي التاريخ تجعل القرابة المزعومة بين الانسان والقرد تبعد عن الاحتمال شيأ فشيأ . فاذا درسنا الانسان الحفري في العهد الرابع وهوالذي يجب ان يكون الانسان فيه اقرب الي اسلافه نجد انسانا مشابها لنا كل الشبه . فان جماجم جميع الرجال الحفريين تثبت بطريقة لاتقبل المنازعة بأنهم كانوا يؤلفون مجتمعامحترما للغاية . وكان حجم الرأس فيهم علي درجة يعتبر الكثير من معاصرينا انفسهم سعداء اذا كان لهم رأس مثله . واذا قابلنا مجموع الرجال الحفريين الذين نعرفهم الآن بما نراه في ايامنا هذه استطعنا ان نؤكد بكل جرأة بأن الاشخاص ناقصى الخلقة هم بين الرجال العصريين اكثر منهم بين الرجال الحفريين . ولا اتجاسر ان افترض باننا فى اكتشافاتنا الحفرية لم نصادف غير اصحاب القرائح السامية من اهل العهد الرابع . والعادة اننا نستنتج من تركيب هيكل عظمي حفري تركيب معاصريه الذين عاشوا معه في وقت واحد . ومهما كان الامر فيجب علي ان اقول بأنه لم توجد قط جمجمة قرد تقرب حقيقة من جمجمة الانسان . . . . على انه يوجد بين الانسان والقرد مخط انفصال نهائى آخر . فاننا لا نستطيع فقط ان نعلم الناس بأن الانسان يتولد ن القرد او من اي حيوان آخر بل لانستطيع ان نعتبر ذلك من الامور العلمية » .

﴿ رأى ايلى دوسيون ﴾

في مذهب داروں

ايلى دوسيون من كبار علماء الفزيولوجيا ذكر عن مذهب دارون في كتابه (الله والعلم) صفحة ٢٩٥ من طبعته الثانية الصادرة في سنة ١٩١٢ .

ما يأتي:

« بعد أن قاوم المذهب الداروني عشرين سنة تلك المكافحات الحقة التي قصده بها خصومه قضى عليه قضاء غريبا بأن يهلك تحت ضربات أشد اشياعه غيرة عليه . الفرضان الرئيسيان اللذان يقوم عليهما هذا المذهب هما الانتخاب الطبيعي وانتقال الصفات المكتسبة بالوراثة في مدي تنازع البقاء . فقد جاء هربرت سبنسر الميتافزيكي الكبير (الميتافزيكا علم العلل الاوليه) وهو امثل المبشرين بالمدركات العالمية لدارون فتكفل بهدم الفرض الاول من أساسه واثبت استحالة تحول الاجسام العليا بتأثير ناموس الانتخاب الطبيعي استحالة تامة (انظر ما كتبه تحت عنوان عدم كفاية ناموس الانتخاب الطبيعي في مجلة (كونتامبوراري رفيو لسنة ١٨٩٣) ثم تبعه نصير آخر للمذهب الداروني لايقل عنه حماسة وهو الامبريولوجي ويسمان (الامبريولوجيا علم الاجنة) فحلل المشاهدات الاصلية التي يقوم عليها هذا المذهب للدلالة على امكان انتقال الصفات والخصائص المكتسبة في مدي حياة الاجسام بطريق الوراثة تحليلا انتقاديا مفصلا وبرهن على ان هذه المشاهدات المزعومة لاتقوم الا على حكايات مخترعة في جميع أجزائها ولاتعلو قيمتها العلمية عن قيمة حكايات المرضعات »

﴿ سقوط ناموس الانتخاب الطبيعي ﴾

فى نظر العلماء

ذكرنا ان مذهب دارون يقوم على ناموس الانتخاب الطبيعي ووراثة الصفات المكتسبة وقد قتلهما العلماء بحثا فوجدوهما لا يغنيان فتيلا فيما نسب اليهما ونحن ننقل هنا بعض ما قاله فيهما العارفون الاخصائيون .

نشر الاستاذ (جورج بوهن) مدير معمل البيولوجيا والبسيكولوجيا بالمقابلة فى جامعة باريس كتابا خصصه لعلم البسيكولوجيا الحيوانية الجديد اجازه المجمع العلمي للعلوم الادبية والسياسية ثار فيه على نظرية الانتخاب الطبيعي قال فيه

صفحة (١٢٥) .

« ان التركيب الجسمي ليس بتركيب وجد لغاية محدودة بل هو مجتمع صفات وراثية يختلف بعضها عن بعض في درجات الاستقلال ، بعضها نافع و بعضها غير نافع بل ضار ، والتركيب الجسمي كثيراً ما يوجد لهذا السبب قليل التناسب مع البيئة التي هو فيها .

« فان كان الانتخاب الطبيعي للصفات النافعة يلعب دوراها ما في الواقع لم يكن أثر التركيب الجسمي على هذه الحال . وعليه فان البيولوجيين الذين لا يزالون يعتقدون بالقدرة المطلقة لناموس الانتخاب الطبيعى ليسوا بمتفقين في هذه النقطة . فان رأي كثيرين من البيولوجيين العصريين انه لا يوجد انتخاب طبيعى بين الصفات المختلفة ولكنه يوجد بين الأنواع التى تم تكونها من قبل »

ثم قال الاستاذ المذكور فى صفحة ١٩٦ من كتابه ذلك :

« الى هنا نري ان نتائج كثير من المباحث البيولوجية والبسيكولوجية الحيوانية قد ظهر بطلانها بسبب القيمة العظيمة التي كان أصحاب هذه المباحث يعطونها لنظرية الانتخاب الطبيعى . ويكفى في ذلك ان يقرأ الانسان الكتابات الاخيرة التي نشرها (ج لويب) وكتابات (دولاج) و (جولدسميث) ليدرك مبلغ نقص الثقة في هذه النظرية (أى نظرية الانتخاب الطبيعي) .

رأي العلامة ادمون بريبه
في ناموس الانتخاب

كتب العلامة (ادمون بريبه) مدير دار الآثار الحيوانية في باريز فى مجلة (العالم الحي) الصادرة في ٢٠ يونيو سنة ١٩١٢ عن كتاب نشره الاستاذ (جينو) المدرس بجامعة نانسى اسمه (الاصول التكوينية للانواع) ونال عليه احدي الجوائز التي يشتد تطلع العلماء اليها وهي الجائزة الخاصة بعلماء التاريخ الطبيعي أو جائزة كوفييه قال :

« ان ثقة الاستاذ (جينو) بتأثير البيئة (الوسط الخارجي) ضعيفة جدا . فان هذه البيئات على مايقول لاتصلح لايجاد أي تغييير وراثي ثابت . وعلى ذلك فان البط وسائر الطيور المائية ترى متمتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظن ان هذه الاغشية قد أوجدها نوع معيشتها . ولكن الامر على العكس من ذلك في مذهب المسيو (جينو) فانه يقول بأنها قد وجدت لها مقدما بدون تأثير من الخارج . واخذ البط يعوم لانه وجد لنفسه ارجلا مغشاة تصلح للعوم . فهذه الحيوانات قد اعدت من قبل للعوم أي انها خلقت لتعوم قبل أن تستفيد من تركيب ارجلها في العوم » .

﴿ عدم ثقة العلماء بناموس الوراثة في نقل الصفات ﴾

﴿ وهو الركن الثاني لمذهب دارون ﴾

قال العلامة الالماني الكبير ويسمان وهو من اعلام علم (علم الامبرولوجيا) كما نقله عنه الفزيولوجي (ايلي دوسيون) في كتابه (الله والعلم) صفحة ٣٥٠ قال :

« لايوجد مشاهدة واحدة تثبت وراثة الصفات المكتسبة ».

وقال (بلوجر) العلامة الفزيولوجي الالماني الشهير في كتابه (الاغراض الآلية في الطبيعة الحية) :

«قد بحثت من قرب جميع المشاهدات التي قيل انها تثبت انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة أي الصفات التي لاتنشق من التركيب الاولي للبيضة والجرثومة المنوية ، بل الصفات التي اكتسبها الجسم بعد تكونه بتأثير الاسباب الخارجية ، فلم اجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال هذه الصفات بالوراثة ».

وقال الفزيولوجي الكبير (دوبوا ريموند) الفرنسي كما نقله عنه العلامة (ايلي دوسيون) في كتابه المتقدم ذكره :

« اذا اردنا ان نكون مخلصين وجب علينا ان نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرد تعليل الحوادث المراد تعليلها وانها هي نفسها من الافتراضات الغامضة » .

﴿ رأى دائرة المعارف الفرنسية الكبري ﴾
في مذهب دارون

دائرة المعارف الفرنسية الكبري المسماة بدائرة معارف القرن العشرين هي احدث دوائر المعارف ظهورا وادقها تصويرا للرأى العلمي الحديث قالت عن مذهب داورن فى الصفحة ٢٩٩ من مجلدها الحادي والثلاثين بعد تفصيلها اصول مذهب دارون .

« لقد رأيت مبلغ استغواء هذه النظرية الدارونية للعقول ومبلغ اجابتها بظرف على الاعتراضات التى توجه اليها ، ولكنها لسوء الحظ مختلة من اساسها لانها تفرض ان جميع الصفات النافعة أعني كل صفات الانواع الحية قد حدثت في بداءتها اتفاقا (أي بالصدفة) فلا بد من وجود قوة تسليم عظيمة لاجل قبول مثل هذا الاصل . ويجري هذا المجري عينه تسليمنا بأن جميع الحيوانات قد حدثت على ماهي عليه اتفاقا (أي بالصدفة) وهو افتراض يلاشي المسئلة نفسها »

﴿ ماهو رأي العلم الرسمى اليوم ﴾
في أصل الانواع

مر ريب مما مر رأي العلماء فى وهن اصول مذاهب التحول الرسمية سواء اكانت لاماركية أو دارونية فما هو موقف العلم اليوم حيال مسئلة وجود الاحياء وتنوعها ؟ أحسن مانعمله للاجابة على هذا السؤال هو ان ننقل قول العلم نفسه في شخص اكبر ممثليه ومن احدث ماوصلنا منهم .

قال الاستاذان (ايف دورج) العضو بالمجمع العلمي الفرنسي والدكتور (م. جولد سميث) في كتابيهما المسمي (نظريات التحول) المطبوع سنة ١٩١٦ صفحة ٣٤٥ .

« ماذا نستطيع ان نستنتج من كل ما مر ؟ نستنتج منه مايأتي وهو : انه وان لم يكن مذهب من المذاهب التى امتحناها هنا يعطينا حلا عاما مطلقا يثلج عليه الصدر عن مسألة التحول فان العوامل التى يعتمدون عليها تعمل في الحقيقة عملا ما في احداث ذلك التحويل . ولكن اعمال هذه العوامل من التركب الشديد والتدخل المعقد بحيث يصعب أن يعرف لكل منها قسطه في العمل والى هذا يرجع بلاشك السبب في محاولة الواضعين لهذه المذاهب المختلفة نسبة التأثير الرئيسى لبعض هذه العوامل دون البعض الآخر مع اغفال اشتراك العوامل الاخري . وهذا الموقف الاطلاقي الغاية هو سبب النقص في مدركاتهم .

« ويمكن للانسان الآن ان يتساءل على أي صورة سيكون الحل النهائي لهذه المسئلة ؟ أينبغ لمذهب التحول رجل مثل (نيوتن) فيأتينا طفرة برأي عبقري فيحل لنا المسئلة باكتشاف عامل جديد غير منتظر يكون من الوضاحة التامة بحيث ينقلب على جميع المعتقدات ويترك الناس يتساءلون كيف بقوا كل هذه المدة الطويلة دون ان يحلوا بهذا الحل الحاسم ؟

« لما اتى دارون بناموس الانتخاب الطبيعي (تأمل) خيّل للناس انه هو نيوتن المنتظر ، ولكننا نأسف من ان نظريته لم تقاوم النقد الذي وجه اليها ، فنأمل ان يأتي من هو اسعد حظا منه » انتهى .

هذا هو موقف العلم اليوم ومنه يتضح ان العقل الانساني خلع نير الانخداع بالكلمات الفارغة ، وتجرد من رين تلك الدعوى الطويلة العريضة بادراك جميع مساتير الكون مما اوقعه في الغرور الذي حوّله وصده عن بحث كل ما يناقض المقررات الموضوعة ، ورمى بالجهل والغباوة كل من يقول بوجود عالم وراء هذه المادة فاعل فيها

ومؤثر عليها فوق النواميس المعروفة . فأين من هذا الأدب المصري العالي ممن رشفوا رشفات لاتبلغ بهم حد الري من الفلسفة والعلم فهبوا في الشرق ينشرون من سموم الغرور العلمي مالفظته بنية العالم الغربي واصبح الظهور به دليلا على الحماقة وعلى الجهل في وقت معا .

﴿ الشبهات الخطيرة من مذهب ﴾
دارون

اتى دارون بمذهبه فاستغوي السواد الاعظم من الباحثين عند الصدمة الاولى وذلك بلطف مداخله وحسن تعليلاته ووضوح تفسيراته ، حتي يمكن ان يقال ان تاريخ العلم لم يسجل مذهبا كان له مثل هذا التأثير على النفوس في عصر من العصور. ولقد تهدمت اركان هذا المذهب ، وتقوضت اصوله تحت معاول النقد العلمي الصارم ولا تزال تعليلاته اخذة بهوي كثير من الناس وبخاصة أولئك الذين ليس لهم من العلم الا مايحفظونه من مسائله العامة وما يتأثرون به من شبهاته وشكوكه .

فمن الاصول التى قام عليها مذهب دارون اصلان لايزالان عالقين بكثير من الاذهان احدهما ان التكوين الطبيعي جاء عن غير قصد وحدث لغير غاية معينة ، فصدر على نظام آليّ محض مقودا بنواميس ميكانيكية تعمل فيه بغير شعور وتنوعه بغير اختيار . فاعيننا لم توهب لناهبة من قوة مدبرة لننظر بها بل حدثت فينا اتفاقا في أدوار التكوّن فاستخدمناها في النظر وانتفعنا بها لهذه الغاية غير المقصودة وقس على ذلك سائر الاعضاء .

والاصل الثاني هو ان الغرائز العجيبة التى فطرت عليها الحيوانات من التحايل على استجلاب اغذيتها والعمل على ذواتها وتنمية أنواعها ليست بالهامات من قوة مدبرة ولكنها عادات موروثة ألهمتها اياها الضرورات الطبيعية وطبعتها فيها الحاجات الحيوية .

ونحن لانجد مناصا من ان ننقد لهذين الاصلين فصلين .

﴿ شبهة النظام الآلي في الطبيعة ﴾

ونفي القصد والغاية منها

يقول عمدة الملحدين ، وشيخ شيوخ الماديين بوخنر في كتابه (المادة والقوة) مانصه :

« كل الاجرام السماوية كبيرة أو صغيرة تخضع صاغرة بغير استثناء ولا انحراف الى الناموس الملازم لكل مادة ولكل جزء من مادة كما تدلنا عليه التجربة من آن لآخر . وان جميع حركاتها تبدو لنا وتتحدد أمامنا وتنبئنا عن حدوثها بضبط رياضي لايتطرق اليه الخلل » انتهى كلامه .

فياليت شعري اذا كانت الاجرام السماوية وهي على ماتعلم من العظم والجلالة تتحرك فى مداراتها خاضعة صاغرة لناموس مقرر ملازم لاصغر ذرات المادة فهل بعد هذا دليل على وجود القصد ؟ ألا يقال هنا لماذا كان الناموس المدبر المنظم ملازماً للمادة لا يفارقها ؟ هل قرره الاتفاق المحض والعدم الصرف ، أم قضى على الكون بالنظام منذ الابد ؟ من قضى بذلك ولماذا لم يكن مكانه الخبط والفوضى والانحلال؟ لماذا تقولون ان هذا الناموس المدبر الملازم للمادة موجود بلا قصد ولا تقولون انه أثر قدرة عالية وتدبير حكيم ؟ اذا كانت بداهة العقل تشعر بأن النظام لايصدر من العدم، والضبط لاينشأ الا من ضابط فلماذا تنسبون الناموس المنظم الملازم للمادة الى العدم الصرف ولاتنسبونه الى عقل مدبر؟

قال الدكتور شبلي شميل وهو من زعماء المذهب المادي في الشرق في كتابه مذهب النشوء والارتقاء صحيفة ٢٤٤ .

« أما الماعه (يريد مجادلاله) الى الغاية والقصد فمنقوض بما في الحيوانات والنباتات من الاعضاء الزائدة التي يسمونها أثرية والتي لافائدة لها وفيما يسمونه حكم الضرورة

فمثال الاعضاء التي لافائدة لها الاسنان القواطع في أجنة كثير من الحيوانات المجترة فهذه تكون في سمك عظم مابين الفكين ولا تبرز أبداً ولذلك لافائدة لها فما الغاية من وجودها ؟ والانسان في غني عن تحريك اذنيه فما الفائدة من العضلات المرتبطة بهما وربما اكتسب الانسان بالمزاولة والتمرين القدرة على تحريكهما ؟ وأما فائدتهما فظاهرة في بعض الحيوان . ومن هذا القبيل أيضاً العيون الأثرية التي لاتبصر في بعض الحيوانات التي تقطن الكهوف أو تقيم تحت الارض وفي اكثر ذوات الفقار يوجد زوجان من الاطراف زوج امامي وزوج خلفي ويكون أحد هذين الزوجين ضامراً غالباً وفي النادر يكون الاثنان ضامرين كما في الحيات على أن بعض الافاعي (كالبوابيتون) له زائدتان عظيمتان في القسم الخلفي لافائدة لهما وانما هما أثران لطرفين كانا موجودين في اجداده . وامثلة ذلك كثيرة جداً في الحيوان والنبات كما لايخفى على علماء هذين الفنين وفي هذا القدر كفاية لغرضنا . فلو كانت الغاية موجودة لما وجب ان يكون في هذه الكائنات شيء لافائدة له وربما كان مضراً أيضاً . وكم حار علماء طبائع الحيوان والنبات بهذه الاعضاء الأثرية قبل داروين وذهبوا فيها مذاهب شتي حتي ظهر مذهب داروين فقطعت جهيزة قول كل خطيب لان كل عضو لازم نما بالاستعمال فعرف ان الاعضاء الأثرية كانت اعضاء نامية في اجداد كانت لازمة فيها وضمرت حيث لم يبق لها لزوم وفي البعض زالت بالكلية فلا دخل للغاية وانما الدخل للضرورة . وما نراه من النظام فهو كذلك ضروري لامقصود لان التغير الحاصل في جزء من أجزاء هذا العالم يتبعه تغير في سائر الاجزاء على حكم الضرورة كنتيجة لسبب فاذا كانت العوالم موجودة على النظام الذي نراها فيه فلأنها هي من الارتباط بعضها مع بعض بحيث لايمكن ان تكون على خلاف ذلك . فلو تغير نظام أحدها لوجب أن يكون التغير شاملا لعموم النظام ولذلك لم يكن الكون بعضه بالنسبة الي بعض ولا هو كائن ولن يكون الا منتظما وان اختلف في الازمنة الثلاثة لارتباطه بعضه ببعض وجريه علي سنن شاملة لجميعه . وكذلك يقال في الارتقاء فان العالم لايسير الا متقدماً لضرورة تغلب الانسب في منازعة هذا الوجود كما هو

مقرر في مذهب دارون » انتهي كلام الدكتور شبلي شميل .

***

نقول اننا لاجل دحض هذه الشبهة نعمد أولا الى النظر في مجموع الكون ثم نتنزل منه الى كائناته لان الحكم علي المجموع بالنظر الى بعض جزئياته يفضي الي ضلال بعيد وخطأ عظيم .

فهل مجرد النظر الي الكون جملة يشعرنا بأنه وجد بالضرورة بلا قصد ؟ اللهم لا .

ان هذه الكواكب السابحة في الفضاء على مدارات منتظمة تشعر بتجاذبها المتبادل وجريها الى غاياتها ، وانتهائها الى نهاياتها بأنها مقودة بنظام دقيق ، ينبيء عن قصد حكيم ، وتدبير سديد أريد به قيامها علي هذا الترتيب البديع لانتاج اغراض بعيدة من عمارية الكون وتحليته بكل الابداعات الممكنة .

ان قال الماديون ان هذا النظام لايدل على قصد وانما هي الضرورة التي تقيمه على هذا النمط وتعليلهم ذلك بأن التغير الذي يحصل في جزء من اجزاء هذا العالم يتبعه تغير في سائر الاجزاء على حكم الضرورة كنتيجة لسبب الخ ، ان قال الماديون هذا أجبناهم بأن كلامنا في مبدأ هذا النظام لافي أطواره فلماذا كان الكون في مبدأه منتظما حتي اقتضى الحال ان يجر كل تغير في جزء من أجزائه الى تغير في مجموعه على حكم الضرورة ، ولم لم يكن في مبدأه خبطاً وخلطاً وفوضى مستحكمة حتي يؤدي كل تغير في جزء من أجزائه الي اضطرابات لا تتناهي وارتباكات لا تقف عند حد ؟

يقولون الكون منتظم بحكم الضرورة . وهي كلمة فارغة فما هي هذه الضرورة القاضية بالنظام ، المنزهة عن الخبط والفوضى ؟

الضرورة ان لم تكن كلمة فارغة فهي حالة عمياء صماء بكماء ، فلماذا تتجه دائما الى الوجهة المنتجة للابداع ، المثمرة للعمران ، ولا تتجه الي خطة خسف ، ووجهة عسف ، فتنتج

الدمار والفناء وتشمر الانحلال والتلاشي ؟

خل الكون جانباوهلم ننظر الى بعض عوالمه وهي الكرة الارضية فهل لا يري الرائي اذا ألقى عليها نظرة تأملية بأن آثار القصد بادية على كلياتها وجزئياتها ؟

ألا يري أولا انها بما متعت به من عوامل الحياة ووسائل العيش قد أعدت بقصد لان تكون مأهولة بالنباتات والحيوانات والانسان .

ثم ألا يري انها بما أودعت من المرافق والقوى المختلفة قد أهلت لان تكون مجالا للمبدعات التكوينيه والترقيات الانسانية ؟

دع الكون في جملته وتأمل عالم النباتات وقل لي ألا تري معي ان آثار القصد ظاهرة فيها ظهور الشمس في رائعة النهار ؟ انظر الي أعضاء شجرة وسرح فكرك في اجزائها المختلفة من اول جذورها الضاربة في بطن الارض الي قمم أعضائها المشرأبة الى عنان السماء، وأجل الروية فيما أودعته أوراقها من الاعصاب الدقيقة والخزانات التنفسية والمادة الخضراء وما متعت به تلك الاوراق من الخواص لامتصاص الغازات المختلفة من الجو ثم اعادة بعضها اليه بعد تحويله الي مركبات جديدة . وما حليت به أزهارها من الالوان البديعة والروائح الشذية والهيئات الجميلة ، وما وضع في باطنها من اعضاء الذكورة والانوثة ، وما هديت اليه تلك الاعضاء من التقارب في حين التلقيح لاداء تلك الوظيفة ، وانتقل من ذلك الي الثمرة وتأمل في هيئة غلافها ولونها وطعمها ورائحتها و بزورها وما أودعته من الاجنة لانتاج شجرة مماثلة للتي خرجت منها وما أحيط ذلك الجنين به من المواد الحافظة لحيويته الخ الخ تأمل في ذلك كله ثم قل لي ألا تري فيه آثاراً للقصد ، ودلائل للارادة ؟

دع عالم النباتات في تنوعه واختلافه الذي لا ينتهي الي حد ثم تأمل في عالم الحيوانات وما متعت به من أسلحة الكفاح ووسائط التكاثر ، وما ألهمته من الحيل والاساليب للذياد عن حياتها وحياة صغارها ، وما أحيطت به من الوبر لاتقاء أفاعيل الجو عليها ثم قل لي ألا تري في ذلك كله آثاراً للقصد ودلائل للارادة والاختيار ؟

يقول الماديون كل ذلك أوجدته الفواعل الوجودية والعوامل الطبيعية ، وكل ما تراه فيها من آثار الالهام كالحيل الحافظة لوجودها والاعضاء الواقية لها ، فانما هو من آثار الضرورة الطبيعية والحاجة الفطرية . فالحيوانات في البلاد الحارة توجد بلا وبر أو بور خفيف ولكن التي توجد في البلاد الباردة تحلى بوبر وتلهم بأمور كثيرة لحفظ وجودها وليس ذلك لان خالقا قصد ذلك بها ولكن لان الضرورة تقضي ان تكون على تلك الحال والا تلاشت .

نقول ليت شعري ماهي تلك الضرورة التي تهب لكل محتاج حاجته ، وتلهم كل حي ما به حياته وبقاؤه ؟ أهي عاقلة مدركة أم عمياء بكماء صماء . اهي كلمة فارغة أم الهة مدركة تقصد عمارية الكون وبقاءه ؟

ان كان كل هذا لايدل على القصد ولا يشعر بارادة عاملة في الكون بل هي مجرد الضرورة والحاجة فهل الضرورة هي التي أوادت بقاء الأنواع فخلقت الذكر والانثي وجعلت في كل جنس ميلا فطريا الى الآخر ، وخلقت أحدهما حاملا للجراثيم المنتجة والآخر وعاء لها يحملها في أحشائه ويغذوها بدمه حتى تستوفي حياتها الجنينية ثم أعدت لها أثداء تمدها بالغذاء الخالص حتي تشب وتترعرع ، وأودعت صدري الابوين من الحنان والرحمة ما يضطرهما الى تربية صغارهما واعدادهما للحياة ؟

هل الضرورة هي التي أدركت ان دوام النوع لايكون الا بايجاد انثي بجانب الذكر تشابهه في التركيب الظاهري وتخالفه في التركيب الباطني فأعدت لكل منهما الاعضاء اللازمة للتوليد ثم أدركت أن تقاربهما لايمكن أن يكون بمجرد عاطفة حفظ النوع بل لابد لذلك من وسيلة تجعل اتصالها أمرا محتما عليهما فخلقت لكل منهما لذة في ذلك الاتصال ليكون وافما لامحالة مهما اعترضهما من العواثير فأخذ أحدهما ينجذب الي الآخر طلبا لتلك اللذة وتوفية لتلك الحاجة ليتم التلقيح وان لم يريداه ولم يسعيا اليه .

اللهم ان آثار القصد في هذا الامر من أظهر مايكون فان كانت الضرورة هي التي

فعلت ذلك فهي ضرورة عاقلة مدبرة حكيمة مريدة لبقاء الانواع تستحق أن تعبد وان يُتأمل في آثار رحمتها وسعة سلطانها ، ويُتعجب من شمول علمها واحاطة قدرتها .

الضرورة . . . . ما أحقر هذه الكلمة بجانب هذا الابداع العظيم وحيال هذه المشاهد الطبيعية التي لا تحد .

الضرورة . . . ما أضيق مدلول هذه الكلمة عن تفسير عجائب هذا الخلق ، وتعليل قيام هذا الوجود المحير لاقوى المدارك .

واذا كانت الضرورة أعجز من أن تعلل ظاهرة واحدة من هذه الظواهر التى لاتحصى فان القائلين بها يستحقون الرحمة لا الرد ، وشبهتهم تستحق السخرية لا الحل .

رأي الدكتور ادوردهارتمان

في القصد والغاية

الدكتور ادوردهارتمان خليفة الفيلسوف الكبيرشوبنهور وهواليوم ركن الفلسفة الالمانية . قال في كتابه (المذهب الداروني صفحة ١٥١ من الطبعة الفرنسية ما مؤداه :

« كان المذهب المادي قد انكر قبل داروين وجود النظام في الطبيعة رغماً عن المشاهدات ، ولكن المذهب الداروني اعاد الاعتراف بوجود ذلك النظام إلا انه تخيل تعليله بأنه نتيجة الادوار الميكانيكية المحض .

« وعلى هذا فاذا عُد النظام الطبيعي كشيء مقرر واذا زُعم أنه نتيجة الحوادث الميكانيكية لزم القائل بهذا ان يختار واحداً من اثنين . فاما ان يقول بأن نظام الحوادث الطبيعية الناتجة من ميكانيكية الطبيعة غير مرتبط بالنواميس الميكانيكية ولم توجد تلك الحوادث الا اتفاقا (اي بالصدفة) ، وإما ان يكون هذا النظام نتيجة

ضرورية ثابتة لهذه النواميس وحادث من طبيعتها .

« ففي الحالة الاولي يسقط زعم تعليـل الحوادث بالنواميس الميكانيكية . لان الاتفاق (أي الصدفة) يكون في هـذه الحـالة العامل الوحيـد في ايجاد النظام الطبيعي . وهذا ، بعبارة أخري ، يلاشي امكان التعليل بأصول طبيعية عاملة في الوجود علي نظام مقدر . . .

« وفي الحالة الثانية يكون الحال على العكس اذ يفضي الي الاعتراف بوجود القصد لان من مقتضيات الميكانيكية حـدوث حوادث مطابقة لنظام مقـدر ، اي تكون الميكانيكية ذات غاية وقصد .

« هذا حق لامرية فيه ، ولاتنس ان كلة الميكانيكية تعني آلة للتكوين او مجموعا من الوسائل وهذا يقضي ان تكون موضوعة لغرض .

« واذا لم تكن ميكانيكية الطبيعة موضوعة لغاية وقصد لرأيت ان السائد في الكون فوضى عمياء لقوي مستقلة هائمة علي وجهها هيان الثيران المهملة .

« ونقول بعبارة اخري ان القصـد يقتضي الميكانيكية ، فانه يستحيل بدونها ، كما يستحيل وجود الميكانيكية بدون وجود القصد . فاذا تقررت نظرية الميكانيكية على اطلاقها تحققت معها نظرية القصد على اطلاقها كذلك . واذا تحققت نظرية القصد على اطلاقها تحققت نظرية الميكانيكية كذلك .

« وان وجود هذا الرأي عند الداروينيين (رأي عدم وجود القصد) هو من المسلمات التي لايقوم عليها دليل ومن الاوهام التي لا اساس لها » .

﴿ رأي لويز بوردو ﴾

في الغاية والقصد

العلامة لويز بوردو من كبار مؤلفي فرنسا قال في كتابه (مسألة الحياة) الصادر في سنة ١٩٠١ مايأتي :

« القول بوجود القصد هو المصباح الذي ينير مسائل علم البيولوجيا (علم الحياة) فاذا حرمت من هذا النور اصبحت علوم التشريح والفزيولوجيا غير مفهومة وخالية من المعني . وقس على ذلك كل شيء . وحيثما يتأسس نظام ويستتب ويترقي ، وتشاهد اقترانات وتطابقات واتجاهات وظيفية الى غاية واحدة ، اواستحالات منتظمة لذرة واحدة او لعالم برمته ، هنالك يجب ان يعترف بأن هنالك قصداً مقصوداً وروحا مدبرة ، لانه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها . فالقصد يظهر في تلاؤم الحوادث ويثبت به .

ثم قال :

« اذا اعتبرت النواميس على وجه عام فغاياتها البينة مجموع آثارها . فغاية ناموس الجاذبة العامة ازالة التهويش الذي حل به من وجود المادة في حالة اضطراب وارتباك ، وتكوين اجرام عالمية ودفعها للدوران ، وغاية الحوادث الطبيعية ونواميسها تحديد الظواهر المتغيرة التي تتنزل منها جميع تشكلات الكائنات ، وغاية ناموس الالفة الكيماوية هو انتاج هذه المجموعة العظيمة للاجسام المركبة المتمتعة بخصائص مختلفة والصالحة لجميع الاستعمالات ، وغاية الحياة هو تكوين مجموعة لايحصي عدد افرادها من الكائنات الآلية الحية المترقية الى طوائف متعاقبة وقابلة للتكمل من اول المونير الى الانسان (المونير الخلية الاولية الحية) .

﴿ رأي الاستاذ فون باير في ﴾
الغاية والقصد

العلامة فون باير الالماني هو من وصفناه فيما تقدم قال في صفحة ٢٤٠ من كتابه (دحض مذهب دارون) .

« اذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهوري بأنه لايوجد قصد في الطبيعة وان الكون لايقوده الا ضرورات عمياء فانا اعتقد ان من واجباتي ان اعلن عقيدتي في

ذلك وهي اني على العكس اري جميع هذه الضروورات تؤدي الي اغراض سامية . وان الزوبعة الفكرية التى ثارت في ايأمنا هذه تعلن ان هذه التعاليم لاتثبت كثيرا والذي اعتبره اناقصدا في الحياة العضوية لايمكن ان يضحي في سبيل سلسلة من الاتفاقات (الصُدَف) .

﴿ رأي العلامة كاميل فلامريون ﴾
فى الغاية والقصد

كاميل فلامريون اشهر فلكي العالم ومعدود من العقول النادرة فى العصر الحاضر قال فى كتابه (المجهول) صفحة ٩

« ان درس الوجود يجعلنا ندرك ان له نظاما مقررا وغاية دفع به اليها وان المقصود بهما ساكن هذا الكوكب وحده ، وانهما يتعاليان عن ان نلم بهما في حقارتنا .

« ان ناموس الترقي الذي يقود الحياة ، والنظام الطبيعي لهذه الحياة نفسها ، وتجاذب الاجناس ، والتبصر الذي يظهر فى النباتات والحشرات والطيور الخ وهى غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها ، وامتحان المشاهدات الرئيسية للتاريخ الطبيعى يتقرر منها كما قال اورستيد بأنه يوجد في الطبيعة عقل مدبر »

﴿ رأي العلامة لوجيل الفرنسى ﴾
في الغاية والقصد

لوجيل من اقطاب العلم العصري كتب في كتابه (العلم والفلسفة)

« العلم يستسلم احيانا لشكوك وانكارات تزعجنا ولكن للعالم مساتير لا يسبرها غور فهو يكتفي بالالفاظ كلما لم يجد سبيلا للنفوذ الى سرائر الظواهر المحسوسة . تكثر الكيمياء من ذكر الالفة ؛ أليست هذه الالفة قوة فرضية وأنية غير مدركة بالحواس

كالحياة والروح ؟ الـكيمياء ترجع الي الفزيولوجيا فـكرة الحياة وتأبي عليها ان تشتغل بها ، ولكن هل في الفكرة التى تحوم حولها الـكيمياء ظل من الحقيقة ؟ هذه الفـكرة لاتدرك غالبا ليس في أصلها فقط ولـكن فيآثارها أيضاً . أيستطيع الانسان انيتأمل لحظة واحدة في القوانين المسماة بقوانين (برتلو) بدون أن يدرك بأنه حيالسر لايسبر له غور ؟ واذا اعتبرنا ظاهرة ساذجة من ظواهر الاتحاد الـكيماوي ورأينا هذا الميل الذي يدفع بعض الذرات الى بعض فتتباحث ثم تتضام بعد تخلصها من المركبات التى كانت تحويها ، أليس في هذا مايحير العقل ؟ كلما امعن الانسان في درس العلوم من وجهتها المعنوية زاد اعتقـاده بأن ليس فى العـلم ما يمنع من اتفاقه مع ابعـد الفلسفات مرمى .

الي ان يقول :

« نحن لانعلم ولا نري الا الظوهر والقشور ، اما الحقيقة والعلة فتأبيان انتنكشفا لنا . وانه ليحق لفلسفة عالية ان تعتبر كل القوي الخاصة التي افاعيلها قدتحللت بالعلوم المختلفة صادرة من قوة أولية أبدية واجبة الوجود مصدر كل حركة ومركز كل عمل . اذا وجهنا أنفسنا هذه الوجهة تظهرلنا الحوادث الطبيعية والـكائنات ذاتها صورا متغيرة الفـكرة الهيئة » .

﴿ رأي دائرة معارف القرن العشرين ﴾
الفرنسـية

كنا نستطيع ان نأتي على مئات من شهادات العلماء فيهذا الصدد ولـكنا رأينا الاكتفاء بما تقدم وختمها بشهادة دائرة المعارف الفرنسية الـكبري فهى وحدهاتمثل رأي العلم الرسميكله .

جاء في صفحة (٨٥٦) من المجلد السابع والعشرين :

« ان الوجود الذي خلقه الله ليس بآلة ساذجة (بسيطة) كما تحاول ان تقنع

به الناس تلك المقارنات الطائشة . وليس مذهب وحدة الوجود هو المذهب الوحيد الذي من خواصه الادلال على ان لكل من الكائنات المتنوعة للطبيعة الحية غاية وضع لاجلها ومركزا يدور عليه » .

﴿ الداروئيون ينكرون الالهام فى الحيوانات ﴾

للماديين انكارات للمحسوسات تعتبر من المدهشات وتظهرهم بمظهر المستحقين للسخرية . من ذلك انكارهم الالهام الحيواني وعزو جميع الحيل التى تستخدمها الحيوانات لحفظ وجودها والبحث عن غذائها الى الضرورة العمياء هروبا من القول بالقصد . فنريد في هذا الفصل أن نأتي على أمثلة من علم الحيوانات فى الالهام الحيوانى ليري القاري، آثار القصد بادية فيه تشهد بالقصد الالهى والعناية الربانية .

دع ما يبتنيه النحل من الخلايا المسدسة الاشكال ، وما يقيمه كلب البحر من السدود على الانهار ، مما تقدر قيمته بألوف الفرنكات ، وما يأتيه النمل من المدهشات في اقامة مساكنه ، وما تفعله الطيور من العجائب في حضانة البيض والزغاليل والقيام بحاجاتها من مأكل ودفء ثم تدريبها على الطيران الخ الخ مما لاتسعه المجلدات دع كل هذا واتل ما أقصه عليك من المشاهدات التى اطلع عليها العلماء بمراقبة الحشرات ، ولكني قبل ذلك أريد أن أذكر لك مذهب الماديين في الالهام الحيواني :

يقول الماديون ان الالهام الحيواني عادة موروثة فان النحل مثلا أهتدي بعد محاولات كثيرة الي ان حفظ حياته يرتبط ببناء خلاياه على نسق معين فأدمن عليه فصار عادة له فأورثها صغاره . ولكن اثبت غير الماديين من علماء الحيوانات ان هذا الزعم باطل فأخذوا حيوانات كالنحل وكلب البحر وهي صغيرة جدا وربوها حتى كبرت وهي لم ترما يفعله آباؤها ثم تركوها فعملت نفس أعمالهم من بناء مساكن واقامة جسور

بحيث لم يوجد أدني فارق بين العملين فكيف تعلل هذه المشاهدة بغير الالهام الذي أودعه فيها الخالق ؟

ان كان ذلك عادة موروثة فلم لم يرث الانسان عادة آبائه فى البناء والنحت وهم قد اعتادوها منذ الوف مؤلفة من السنين وأنت ترى انك لو ربيت أحد افراده بمعزل عن الناس لنشأ جاهلا لا يكاد يميز بين الخير والشر ؟ فاما أن يقول الماديون بأن الحيوان أرقي عقلا من الانسان واما ان يقولوا بأن صنائع الحيوانات من الالهام الالهي .

نرجع الى ذكر مشاهدات العلماء في عجائب حياة الحيوانات المثبتة للالهام الالهي .

منها ان الفراش متي وصل الي الطور الثالث من حياته يضع بيضه على هيئة دوائر علي الاوراق الخضراء ، هذا البيض لا يفقس الا في الفصل التالي فيخرج على هيئة ديدان صغيرة في الوقت الذي تكون فيه أماته (امهاته) في عداد الاموات أي انها لا تراه ، فمن الذى علم الفراش ان صغاره متى خرجت احتاجت الى التغذي بجني النباتات الخضراء ؟ ومن الذي هداه الى وضع بيضه على تلك النباتات ؟ هل هداه آباؤه؟ لا ، انه لم يرها في حياته . فلم يبق الى الالهام الالهي.

ومن تلك المشاهدات ان الحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد ان تبيض مباشرة أي انها لا ترى لها ذرية أبداً (تأمل) وليس فرد من أفرادها رآي له اما او ولداً . ولكن من العجيب ان هذه الحيوانات قبل ان تبيض تُعنى غاية العناية بجمع جثث حيوانية تضعها بجانب البيض لتصلح غذاء لصغارها متى خرجت . ففي أي كتاب قرأت هذه الحيوانات ان بيضها يحتوي على صغار وان تلك الصغار ستخرج وهي في حاجة الي الغذاء وان ما تحتاجه تلك الصغار هو تلك الجثث الحيوانية ؟ الا يدل هذا علي الالهام الالهي من كان له قلب او القي السمع وهو شهيد .

ومن اعجب المشاهدات من هذا القبيل ان الحيوانات المسماة (يومبيل) من اكالة الحشائش ولكن صغارها تولد من اكالة الحيوانات فترى الأمهات تعمد الى

وضع بيوضها على اجساد الحيوانات حتى اذا خرجت صغارهاوجدت ماتغتذي به فمن الذي ادراها ان اولادها من اكالة الحيوانات ؟

ومن المدهشات في هذا الباب الحيوانات المسماة (أوديتير) و (سفكس) فان صغارها متي ولدت احتاجت بأن تغتذي بأجساد حيوانات حيـة فتري امانها متى باضت تعمد الي اصطياد حيوانات لاتقتلهاولكن تضربها بحيث تمنعها الحركة وتركها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز فاذا خرج صغارهاوجدت أمامها لغذائها حيوانات حية وان كانت لاتستطيع الحركة .

ومن المحيرات للفكر من أمر الهام الحيوانات ماتكلم الأستاذميلن ادوراد عنه فى جامعة (السربون) من فرنسا وهو الحيوان المسمى (اكسيلو كوب) فقد قال ان هذه الحيوانات التي تراها طائرة في الربيع تعيش منفردة وتموت بعدان تبيض مباشرة، فلم ير صغارها أماتها ولا تعيش حتى تري أولادهـا التي تـكون على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة من الزمان في مسكن مقفل وهدوء تام والاهلكت .

فتري الام متي حان وقت بيضها تعمد الى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا فاذا أتمته على ماينبغي أخذت فى جلب ذخيرة تـكفي صغيرها سنة ، وتلك الذخيرة هي طلع الازهـار و بعض الاوراق السكرية فتحشوها في قاع السرداب ثم تضع بيضة وتأتي بنشارة الخشب تـكون منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ثم تأتي بذخيرة جديدة تضعها فوق ذلك السقف ثم تضع بيضة أخري وهكذا فتبني بيتها مكونا من جملة أدوار ثم تترك الـكل وتموت .

قال العلامة ميلن ادوارد عقب هذه المشاهدة :

« يجب أن يدهش الانسان لما يرى حيال هـذه المشاهدات الناطقة المتكررة وجالا يدعون لك ان كل هذه العجائب الـكونية ليست الا نتائج الاتفاق (الصدفة) أو بعبارة أخري نتائج الخواص العامة للمادة وأثر لتلك الطبيعة التي تكون مادة الخشب ومادة الاحجار ، وان الهامات النمل مثل اسمي مدركات القوة المدركة الانسانية

ليست الا نتيجة عمل القوي الطبيعية أو الـكيماوية التى بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الاجسام . ان هذه الفروض الباطلة بل هذه الاضاليل العقلية التى يستروننها باسم العلم الحسى قد دحضها العلم الصحيح دحضاً فان الطبيعي لا يستطيع أن يعتقدها ابداً . واذا اطل الانسان على وكرمن أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الالهية ترشد مخلوقاتها الى اصول أعمالها اليومية » انتهى كلام العلامة ميلن أدوارد .

بقي علينا أن نبدي رأينا في أصل هذه الشبهة وهي الاعضاء الزائدة فى الحيوانات ودحض استدلال الدارونيين من ذلك على نفي القصد .

﴿ شبهة الاعضاء الزائدة ﴾

ظهر ببحث العلماء في الـكائنات الحيـة والبائدة أن لـكثير منها أعضاء زائدة أي أثرية مثالها العيون الأثرية التي لاتبصر في بعض الحيوانات التى تقطن الـكهوف أو تقيم تحت الارض .

ومن أمثلة ذلك أيضاً وجود زوج من الاطراف ضامراً في بعض الحيوانات الفقرية وقد وجد كلا الزوجين من الاطراف ضامراً فى بعض الحيوانات كالحيات .

فـكل هذا يدل ببداهة العقل على أن الخالق الحـكيم جري فى ايجاد الكائنات وتنويعها وابداع اشخاصها على سنة تدريجية ، واودع في كل كائن قابلية لان يلائم البيئة التي يعيش فيها .

فان اتفق وجود حيوان متمتع بعينين في بيئة خالية من الضوء ضمرت عيناه وصارتا فيه أثريتين على تعاقب الاجيال . وان حدث وجود حيوان ذي اربعة أطراف في بيئه لا يحتاج فيها الا الى طرفين اثنين ضمر فيه الطرفان اللذان لا يحتاج اليهما واورث هذا الضمور أولاده فصار فيها ذانك الطرفان أثريين .

و بالعكس ان قضى على حيوان لا ناب له ولا منسر ان يعيش في بيئة يحتاج فيها الي ذينك العضوين تكوناً له بالتدريج حتي يصبح من ذوي الانياب والمناسر (ان

صحت مذاهب التحول وقد اريناك شكوك العلماء فيها.

ولكن أليس الاولى بنا أن نعدهذا التحول التدريجي أثراً من آثار العناية الالهية بدل أن نعده من آثار الضرورة التي لا تعقل ولا تعي شيئاً ؟

يميل الماديون أن يعتبروا هذا التحول دالا على أن الخلق جار على سنة العماية المطلقة والضرورة المحضة . كأنهم يريدون أن يهلك، كل حيوان أو نبات يقضي عليه بأن يوجد في بيئة غير بيئته الاولى ليسوغ لهم أن يقولوا أن في الكون قوة عاقلة مدبرة؟ وهذا من غرائب شؤون الماديين . والا فكيف لا يعد امداد الحيوان بحاجته من الاعضاء التي لم تكن له من الرحمة الالهية ويعد عكسه من دلائل الحكمة والغاية والقصد ؟

ان الذي حدا بالماديين الي هذا الزعم توهمهم ان هذا التحول الجزئي يدل على أن العالم كله خلق علي هذه الوتيرة فوجدت الخلية الاولي اولا ثم تحولت الي ارقي منها بتغير البيئة وهكذا تم الخلق علي ما هو عليه من الابداع والكمال .

هب أن الخليقة تكونت علي هذا الضرب من التدرج فماذا فيه من نفي القصد الالهي ؟

هل مما ينفي القصد الالهي أن توجد خلية ساذجة متمتعة بخاصية مقاومة المؤثرات وقابلية التدرج نحو الكمال حتي تصل الي أرقي أنواع النبات والحيوان ؟

أليس هذا أجدر أن يدل على قوة خالقة اوجدت هذه الخلية ومتعتها بكل قوة ووسيلة لحفظ حياتها حتي تصل الى كمالها ؟

أيهما أدل على دقة الصنع وغاية الابداع فى عمل عامل ؟ أعمله الشيء دفعة واحدة وتركه وشأنه يبيد ان لم تناسبه الظروف ، أم تكوينه علي حال تمكنه من التدرج شيئاً فشيئاً ، وإمتاعه بالوسائل التي تمكنه من مكافحة التغيرات الطارئة في كل حين ؟

خلق الله الارض على سنة تدريجية كما تدل عليه المباحث الجيولوجية ، وجعل بيئاتها وقواها دائمة التحول والتغير ، حتى ان سطح الارض الذي نعيش عليه كان قاعا للبحر في عصر من العصور ، وما فيه الآن من مدن عامرة كان قبل عدة أجيال غابات كثيفة ، وما كان غابات كثيفة بظل ويقيت ملايين من الحيوانات اصبح الآن مناجم للفحم الحجري . وقس على ذلك مالا يحصى من الانقلابات . فاذا كان الله خلق الارض على هذه السنة أفليس من الحكمة أن يخلق الكائنات ممتعة بخاصة مقاومة المؤثرات حتى لا تبيد وتتلاشى امام التغيرات الذريعة؟

فاذا لم يخلق الحيوان البصير على حالة تمكنه من ان يعيش في الظلام فتصبح عيناه أثريتين ، ومالاناب ولا مفسر له ان يكون له ذانك العضوان اذا اقتضت الاحوال الماشية وهلم جرا ، هل كان بقي ، لولم يمتع الخالق الحيوانات والنباتات بهذه الخاصة من التحول ، على الارض حي يعمرها الآن ؟

﴿ نظرة على ماسبق ﴾

سردنا للقاريء ما حاوله الانسان من تعليل وجود الاحياء وتنوعها على الارض ، واتيناه بمذاهبه المختلفة حتي مذهب دارون وهو احدثها ظهورا ، واكثرها ذيوعا ، وقد رأي القاريء انه أصبح كغيره مثقلا باعباء النقد ، ناثباً تحت آصار التجريح حتي فضل عليه مذهب لامارك وان كان هو ايضاً لا يستطيع الوقوف على ساقيه من كثرة ماحمل من اوزار الاستشكالات .

وقد زاد الانسان اطلاعا على الدقائق البيولوجيه والامبريولوجية ، ووقوفا على كنه الاختلافات الجنسية والنوعية ، وعلى حقيقة التأثرات الطبيعية ، والعوامل الخارجية فازداد علما بأن هذه المذاهب كلها لاتفسر وجود الحياة ولا ظهور الاحياء وتنوعها . وجاء العلامة (دوفري) فأثبت بالعمل حدوث الطفرة في عالمي النبات والحيوانات فأصبحت نظرية التسلسل نفسها في ازمة اعترف بها اكبر اشياعها من امثال (لودانتك) و (ايف) و (دولاج) و (جولد سميث) فتغير موقف العلم حيال هذه المسئلة كل

التغير ، وادرك العقل في هذه الدفعه ايضاً انه كان مخدوعا بآراء باطلة فهل معني ذلك ان العلم عاد الى القول بالمذهب القديم وهوان كل نوع خلق على حدته .

لا . فان القول به يرد عليه من الاستشكالات اكثر مما يرد على غيره من المذاهب ، وتأثير الفواعل اللاماركية والداروئية في الاحياء لا يمكن نكرانها بوجه من الوجوه ولكنها غير كافية في تعليل وجود الحياة وتنويع الاحياء واصبح الباحثون يرون افضاء المسئلة الى احد امرين : فإما ان يوفق نابغة من نبغاء العلم الي وجدان نظرية تحل جميع معاضلها ، وتفسر كل غوامضها ، بما لايدع محلا لنقد ناقد ، ولا استشكال مستشكل ، واما ان يقتنع العقل نهائياً بأنها من المسائل التي لاتحل كمسئلة الوجود نفسه .

وعلى كلتا الحالتين فقد خلص العقل الانساني، بادراك وهن هذه المذاهب من إصر كان أثقل الآصار عليه ، ناهيك بنظريات كانت توهمه بأنه فهم سر الخليقة فهما لاتردد بعده ، في الحين الذي كان فيه ابعد عن هذا الفهم منه في اي زمن كان .

ولا استطيع ان اصور هنا مبلغ ارتقاء القوة المعنوية للانسان بادراكه انه كان مخدوعا لزخارف من الكلام احلها محل الحقائق المقررة عشرات من السنين ، فان ذلك يزعه عن الوقوع في مثله ، ويحثه علي مدّ مدي بصره ، وعدم قبوعه في زوايا من المباحث حرجة ، لاتصور له غامضة الوجود علي ما هي عليه ، ولا تشعره بروعة هذا المجهول الضخم الذي يحيط به من كل مكان ، فيصدر الاحكام الطائشة على بداءات الأشياء ونهاياتها ، ويبعده عن مصدر العلم الحق الذي يتهالك لادراكه ، ويتفاني للوصول اليه بجهوده المتوالية في مدي الوف من السنين .

فاذا كانت مهمة العلم ان يبحث عن الحقيقة وان يجدها فليس اضرعليه من ان يتخيلها في رأي من الآراء ويجمد عليه . ولا احيل القارئ لفهم خطر هذا الانخداع العلمي الا الى ما كتب في كتب الداروئيين في مدي خمسين سنة بعد ظهور هذا المذهب ليتحقق من مبلغ الغرور الذي كان آخذ بمتنفسهم ، والزهو الذي كان قابضاً علي

مخنقهم . ولست في حاجـة لاعطاء القارىء امثلة مما كانوا ينشرونه من ذلك فهو مشهور متداول ، ولـكني اعطيه امثالا مما نشره الباحثون بعد هذا الدور اي في مدي العشرين السنة الاخيرة بعد زوال هذا الـكابوس عنهم مما يشف عن الادب العالي الذي افاضه عليهم تحققهم من انهم كانوا واهمين ، و بالقشورقانعين . وهوادب دفعهم الي تلمس الحقيقة لا من ناحية المذاهب الخادعة ، والتعبيرات الفارغـة ، ولـكن من ناحية النظر الصحيح في كل ما يعرض لهم غير محتقرين موضوعا بحجة انه بقية من بقايا الاقدمين ، ولا مجاوزين مجالا بدعوي انه من المقررات المتفق عليها قررت انه غير جدير بالبحث استنادا الي اصول وضعها الواضعون ايام الغرور العلمي المشؤم ، فظهر لهم من اسرار الوجود ما حير عقولهم ، وصغر في نظرهم اصولهم ، وانفتح امامهم مجال لا يحده القصور بحد ، ولا تحصر عجائبه ولا تعد ، ونحن هنا نسرد عليك بعض ما اعترفوا به من ذلك وما فرضه عليهم هـذا الموقف العادل من الزراية على المذهب المادي والتحقير لاصـوله الضيقة الحرجة ، وما هُدوا اليـه من الطريق المؤدي الى الباب الحقيقة التي لا تردد فيها ، ولاحيرة معها .

واني الفت نظر القارئ الي امر جدير بالنظر وهو ان هذه الاقرارات بقصـور العلم ، وبحقارة القدر الذي وصلنا اليه منه ، و بكونه قاصرا على العلاقات الموجودة بين الـكائنات لا يتعداها الى كنهها ، هي الوصف المميز لعلم القرن العشرين ، على نقيض ما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر ، حيث كان الغرور بهذا القدر الناقص من العلم بالغاً اشد درجاته ، وهو انتقال بعيـد المدي ، تحرر به العقل من اسر الاوهام ذات الصبغ العلمية ، وتعرّض معه للحقيقة وجها لوجه فشعر من جلالتها وروعتها بما لم يشعر به في عهد من عهوده السابقة . فاذا كان عالم القرن التاسع عشر قد بلغت منه الـكبرياء مبلغها حتى صرفته عن الحقيقة التي ما تولد العلم الا لنِشدانها ، زاعماً انه بلغ الى درجة من فهم المساتير تمكنه من تعليلها وتفسيرها بنظرياته واصوله المصطلح عليها ، معتدا بحواسه ومشاعره واحكامها ، فان عالم القرن العشرين متواضع معترف بقصوره عن تعليل اصغر الظواهر واحقرها ، مقر بأنه كان ولا يزال مخدوعا بحواسه .

ومشاعره ، وانها لا تريه من الموجودات الا قشورها ، اما لبابها وحقيقتها التي هي مرمى العلم ومطمح نظره ، فمستورة عنه بحجاب تلك الحواس نفسها ، والفرق بين الحالين بعيد الغور ، واسع المدي ، بحيث ان القيام علي احدهما يؤدي الى عكس مايؤدي اليها الآخر . فالاول يؤدي الى نكران كل شيء فوق المادة ، والثاني الي نكران المادة واثبات ما فوقها واعتبارها وجها من وجوه القوة ، وكيف يؤمن بالمادة عالم القرن العشرين بعد ما توصل الي افنائها في القوة ، وبعد ما رأي إشعاعها وتلاشيها بذاتها الى تلك القوة ؟

والاول يفضي الي قصر البحث على المادة باعتبار انها اصلا للوجود كله ، والثاني الى مد البحث لما وراءها من عالم القوة الذي ثبت انه الاصل الذي تنزلت منه.

فالخلاف بين المطمحين لايقدر بقدر ، ولا يقاس بمقياس .

فلنبدأ الآن في ان نعرض على القارىء آراء اركان النهضة العلمية الراهنة في العالم والوجود ليقابلوها بتلك الكتابات الطائشة التي يريد اصحابها ان يوهموا الناس ان العلم الطبيعي قد حل معضلة الوجود وادرك سر قيام الموجودات على الاسلوب المادي البحث وليعذرونا ان اكثرنا من النقل في هذا الباب فان هذه الفتنة العمياء تجب ازالتها مهما كلفت الباحثين من جهد وثبات لانها مثار كل الضلالات الالحادية ومنبعث جميع الرعونات العقلية .

﴿ رأى الاستاذ شارل ريشيه ﴾

من مقدمة كتبها شارل ريشيه المدرس بجامعة الطب الفرنسية والعضو بالمجمع العلمي لكتاب الدكتور ماكسويل النائب العام في حكومة الجمهورية الفرنسية وهو كتابه المسمى (الظواهر النفسية) قال الاستاذ ريشيه

صفحة ٧ من طبعته الخامسة سنة ١٩١٤ .

« يجب على الانسان مع احترامه العظيم للعلم العصري ان يعتقد بقوة ان هذا العلم العصري مهما بلغ من الصحة فهو لايزال ناقصاً نقصاً هائلا .

ثم قال في صفحة ٩ معللا جهلنا العظيم بالكون :

« ان حواسنا من القصور والنقص على حال يكاد معها يفلت من شعورها الوجود كل الافلات . فالقوة المغناطيسية العظيمة لم تعرف الا عرضاً . واذا لم يوضع الحديد الحلو بجانب حجر المغناطيس اتفاقا كنا جهلنا دائما ان المغناطيس يجذب الحديد. وما كان احد منذ عشر سنين يحلم بوجود أشعة رنتجن . وقبل اكتشاف الفوتوغرافيا كان لايدري أحد ان النور يؤثر على املاح الفضة . ولم تكتشف الامواج الهرتزيه نسبة الي هرتز الطبيعي) الامنذ ثلاثين سنة ومنذ مئتي عام كان لايعرف عن هذه القوة المغناطيسية العظيمة الا خاصة جذب الكهرمان اذا دلك بالصوف .

« اذا سألنا رجلا بربريا بل لو سألنا فلاحا مصريا أو قرويا روسيا عما يعلمه عن قوي الطبيعة وجدناه لايدري منها عشر ما تسرده منها الكتب الابتدائية لهذا العلم في سنة ١٩٠٣ . ويظهر لي ان علماء هذا العصر سيكونون حيال علماء القرون المقبلة في مثل موقف قروى اليوم ازاء اساتذة كلية فرنسا .

ثم قال بعد ضربه الامثال :

« ثم لماذا لانصرح بصوت جهوري بأن كل هذا العلم الذي نفخر به الى هذا الحد ليس في حقيقته الا ادراكا لظواهر الاشياء ، واما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا ، والطبيعة الصحيحة للنواميس التي تقود المادة الحية أوالجامدة تتعالى عن ان تلم بها عقولنا ؟ مثال ذلك اننا اذا القينا حجرا في الهواء نراه يسقط الى الارض. فلماذا سقط ؟ يجيبنا نيوتن بقوله سقط بجذب الارض له جذبا مناسباً لكتلته وللمسافة التي سقط منها . ولكن ما هو هذا الناموس ان لم يكن مجرد تحصيل حاصل ، والا فهل منهم أحد تلك الذبذبة الجاذبية التي تجعل الحجر يسقط على الارض . ان ظاهرة سقوط حجر علي الارض من الشيوع بحيث لاتدهشنا . ولكن الحقيقة انه لا يوجد عقل انساني فهم ذلك ان هذه الظاهرة عادية وعامة ومقبولة ولكنها غير مفهومة ككل ظواهر الطبيعة بغير استثناء (تأمل) .

« نري البيضة تلقح فتصبح جنيناً ، ونرانا نصف أدوار هذه الظاهرة ونحن بين

مخطئين ومصيبين في الحقيقة ، ولكن هل فهمنا رغماً عن وصفنا الدقيق لها سر ذلك التحول الذي يحدث في البروتو بلاسما الخلوية فيقلبها الى كائن حي عظيم ؟ وبأي معجزة تحدث تلك التجزؤات ؟ ولماذا تنجمع تلك التحببات هنالك ؟ ولماذا تتهادم هنالك لتعيد تكونها في مكان آخر .

« اننا نعيش في وسط ظواهر تتوالي حولنا ولم نفهم سر واحدة منها فهما يليق بدرجتها . حتي ان اكثرها سذاجة لا تزال سرامن الاسرار المحجوبة كل الاحتجاب. فما معني اتحاد الايدروجين بالاوكسيجين ؟ ومن الذي استطاع ان يفهم ولومرة واحدة معني هذا الاتحاد وهو يفضي الى ابطال خواص الجسمين المتحدين وايجاد جسم ثالث مخالف للاولين كل المخالفة ؟ ان العلماء لم يتفقوا للآن حتى على طبيعة الذرة المادية التي توصف بأنها غير قابلة للوزن وهي مع ذلك تصير قابلة له متى اجتمع عدد كبير منها .

« فالاولى بالعالم الصحيح ان يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد متواضعا لان علومنا ضئيلة ، وجريئاً لان مجال العوالم المجهولة مفتوح امامه .

ثم ختم مقدمته بقوله .

« فالويل للعلماء الذين يظنون بأن كتاب الطبيعة قد اقفل ، وانه لا يوجد شيء جديد يحسن تفهيمه للانسان الضعيف .

رأي الفيلسوف الفرنسي جيو :

وقال الفيلسوف جيو في كتابه (عدم التدين في المستقبل) في طبعته السادسة سنة ١٨٩٦ وهو من ألد أعداء الاشكال الموجودة من الاديان :

« ان الفرض القائل بأن الذرة المادية لاتقبل الانقسام ولا التجزؤ يعتبر من الوجهة الفلسفية من الآراء الطفلية . فقد أثبت طومسون وهلمولتز ان الذرات فى ذاتها زوبعات متشابهة مكونة من الابخرة (كبخار كلوريدرات الامونياك مثلا) فقال أن كل حلقة زوبعية تتألف على الدوام من جزيئات واحدة ولا يمكن فصل

احداها عن سائرها . فلكل منها والحالة هذه شخصية ثابتة .

« اذا وُسّع المذهب المادي وجب عليه أولا نسبة الحياة الي العنصر العام بدلا من ان يفترضه مادة عمياء . قال الفيلسوف سبنسر (كل جيل من الطبيعيين يكتشف في المادة المسماة عمياء قوي ما كان يحلم بوجودها اعلم علماء الطبيعه قبل ذلك بسنين معدودة) فاننا لما رأينا أجساماً جامدة تحس رغماً عن جمودها الظاهر بتأثير قوي لايحصى عددها ولما اثبتت لنا آلة التحليل الطبيعي (السبكترسكوب) بان الذرات الارضية تتحرك بالاتفاق مع الذرات الموجودة في الكواكب ، ولما اضطررنا الى ان نستنتج من ذلك ان ذبذبات لايحصى لها عدد تخترق الفضاء في كل وجهة وحركة، لما رأينا ذلك كله وجب علينا ان ندرك كما يقول سبنسر (ان الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة ، بل هو وجود حي في كل جهة من جهاته ، حي بأعم معانى هذه الكلمة ان لم يكن بأخص معانيها) . . . .

« الاصلاح الثاني الذي يحتاج اليه المذهب المادى لكي يفي بحاجة البحث عن العلل الاولية هو ان يفترض ان للمادة مع الحياة جرثومة روحانية . وبما ان هذه المادة الاولية هي عبارة عن قوة صالحة للحياة وللفكر معا فليس هذا اذا يُفهم عميا بل وعليا من معني المادة فضلا عما يفهم من معني الايدروجين (الذي يظن البعض انه المادة الاولية). فالمادي البحت الذي يلمس بيديه كرة الدنيا معتمدا على الحاسة الغليظة وهي حاسة اللمس يصيح قائلا : الكل مادة . ولكن المادة نفسها يستحيل في نظره الي القوة ، والقوة ليست الاصورة اولية من صور الحياة . وعلى هذا تستحيل المذهب المادي الي مذهب روحانى ، وتجده مضطرا امام الكرة الارضية الدائرة لان يقول انها حية . واذ ذاك يتدخل شخص ثالث يضرب هذه الكرة برجله كما فعل غاليليه ويقول : نعم هي قوة ، هي حركة ، هي حياة . نقول ومع ذلك فهي أيضاً شيء آخر لانها تفكر فيّ ، وتدرك ذاتها بي .

ثم قال « اذا كان المذهب المادي الذي يدعى انه علمي محض لايقبل ان الطبيعة تعطي بقدر مايدرك العقل ، واذا انكر وجود الفكر والطبيعة معا كان بذلك منكرا

انطباق الطبيعة على أحكام العقل وهو الاصل الذي تعتمد عليه كل فلسفة تدعى انها علمية محضة .

ثم قال :

«اننا عوضا عن أن نحاول ادماج المادة في العقل والعقل في المادة نعتبر الاثنين معاً في هذا التركيب وهو الحياة ، وهذا التركيب اضطر العلم نفسه في تنزهه عن الغرض سواء أكان أدبياً أودينياً الاعتراف به . فالعلم يوسع كل يوم دائرة الحياة حتى صار لا يوجد خط انفصال ثابت بين العالم العضوي والعالم غير العضوي » انتهى .

﴿ رأي الاستاذ جوستاف لوبون ﴾

نقلنا رأي هذا العلامة الكبير في العلم والمزاعم الملسفية في صفحة (٢٣ـ٢٨) من هذا الكتاب فراجعه فيها وهي آية في هذا الباب .

﴿ رأي الاستاذ هنري بوانكاريه ﴾

قال الاستاذ الرياضي الكبير هنري بوانكاريه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي في مقدمة كتابه (العلم والافتراض) صفحة ١ :

« الحقيقة العلمية فى نظر الشاهد السطحي تعتبر خارجة عن متناول الشكوك . وعنده ان المنطق العلمي غير قابل للنقض وان العلماء ان اخطأوا احياناً فلا يكون ذلك الا لانهم لم يرأعوا قواعده .

« والحقائق الرياضية في نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الادلة المنزهة عن الخطأ . وهي واجبة ليس علينا فقط بل وعلى الطبيعة أيضاً ، مقيدة الخالق نفسه ولا تسمح له الا باختيار حل من بين الحلول القليلة العدد قلة نسبية . فيكفينا والحالة هذه عدة تجارب لنعرف منها أي شيء قد اختار الخالق منها . ومن كل تجربة من هذه التجارب تنتج طائفة من نتائج رياضية وعلى هذه الصورة تعرفنا كل واحدة منها زاوية مجهولة من زوايا الكون .

«هذا هو اصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا وللتلاميذ الذين يتلقون مبادىء علم الطبيعة . وها هو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو ايضاً غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مئة سنة ان يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

« ولكن لما تروى العلماء قليلا لاحظوا مكان الافتراض من هذه العلوم ورأوا ان الرياضى نفسه لا يستطيع لاستغناء عنه ، وان التجربة لا تستغني عنه كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضاً عما اذا كانت هذه المباني العلمية على شيء من المتانة وتحققوا ان نفخة واحدة تكفي لجعل عاليها سافلها . فمن أخذ على هذا الوجه صار سطحيا أيضاً . فان الشك في كل شيء أو الاعتقاد بكل شيء يعتبران حلين قليلي المؤنة فان كلامنهما يعفينامن إعمال الروية » .

﴿ رأي الاستاذ وليم جيمس ﴾

الاستاذ وليم جيمس استاذ بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة وصاحب المؤلفات المنتعة في علم النفس قال في كتابه ارادة الاعتقاد صفحة ٧٣ :

قد بدأ عصر العلم بغاليليه من لدن ثلاث مئة سنة ومن ذلك اليوم الي هذا الحين كان يكفى أن ينبغ أربعة رجال يفضى كل منهم الي خليفته بما فتح على الناس فى عهده من مكتشفات العلم فكان يصل اليناعنهم ذلك النور العلمي كله . فهل يعقل ان علما ليس له من العمر الا يوم واحد . . . . يستطيع ان يمثل لنا شيأ آخر غير صورة ضعيفة لما سيكون عليه السكون في نظر الذين سيفهمونه على حقيقية فى يوم من الايام . كلا . ان علمنا ليس الا نقطة ولكن جهلنا بحر زاخر . والامر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحاليه محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم ندرك خواصه المكونة له الي اليوم » .

﴿ رأي الاستاذ كروكس ﴾

الاستاذ وليم كروكس من اكبر علماء الانجليز ومن أعضاء المجمع العلمى الملكي حصل على جميع ألقاب الشرف العلمية التي تمنح في بلاده للنابغين . وهو مكتشف اشعاع المادة وآلات كيماوية كثيرة قال في خطبة له في مجمع العلوم كما ورد ذلك في مجموع خطبه صفحة ٨

« من بين جميع الصفات التي عاونتني في مباحثي النفسية وذللت لي طرق اكتشافاتي الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات احياناً غير منتظرة ، قلت من بين تلك الصفات عندي اعتقادي الصحيح الراسخ بجهلي . واكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا الي اهمالهم الكلي لجانب عظيم من رأس مالهم العلمي المزعوم لانهم يرون أن رأس مالهم هذا وهمي محض » .

وقال في معرض آخر من تلك الخطبة :

« متي امتحنا من قرب بعض النتائج المادية للظواهر الطبيعية نبدأ بادراك الى أي حد هذه النتائج أو النواميس ، كما نسميها ، محصورة في دائرة نواميس أخري ليس لنا بها أقل علم . اما انا فان تركي لرأس مالي العلمي الوهمي قد بلغ حداً بعيداً . فقد تقبض عندي هذا النسيج العنكبوتي للعلم ، كما عبر بذلك بعض المؤلفين ، الى حد أنه لم يبق منه الا كرة صغيرة تكاد لاتدرك .

« ولست بآسف من الحدود التي تضعها امامنا الجهالة الانسانية ، بل اني اعتبرها منشطا منقذا . اني اعتقد بأني لست أنا وليس احد سواي اهلا لان نعيّن مقدما ما ليس بموجود في الكون . ولا أستطيع انا ولا احد غيري يستطيع أن نقول بان شيأ بعينه لايحصل حولنا في كل يوم من ايام حياتنا . هذه العقيدة تدع لي املا مقوياً بأن اكتشافا رئيسياً جديدا يمكن ان يحدث في مجال من المجالات في اقل الاوقات تفكراً فيه » انتهي .

وقال في خطبة أخري صفحة ٣٦

« الـكون كله ، على ماندركه ، نتيجة الحركة الذرية . وهـذه الحركات الذرية تنطبق تماما على قانون حفظ القوة ، ولـكن مانسميه ناموسا طبيعياهوفي الحقيقةمظهر من مظاهر الاتجاه الذي يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع ان نعلل الحركات الذرية كما نعلل حركات الاجرام الجسمية ، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولـكننا مع ذلك لانكون اقرب مما كنا عليه الى حـل اهم مسئلة وهي : أي نوع من انواع الارادة والفكر يمكن ان يوجد خلف هذه الحركات الذرية مجبرين لهذه الحركات على اتباع طريق مرسوم لهامن قبل ؟ وماهي العلة العاملة التى تؤثر من خلف هذه الظواهر (وفى الاصل من وراء ستار المسرح) ؟ وأي ازدواج من الارادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجاً عن نواميسنا الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادي الذي نعيش فيه ؟ »

ثم قال :

« اسمحوا لى ان استنتج من هذا الفهم انه يستحيل علينا ان نتخيل مقدما الاسرار التي يحتويها الـكون والعوامل الدائبة علي العمل فيما حولنا » انتهي .

﴿ رأي الاستاذ اوليفرلودج ﴾

اوليفرلودج من اكبر علماء الطبيعة الانجليز عضـو بالمجمع العلمي الملـكي ورئيس جامعـة برمنجهام ومكتشف نظرية التلغراف اللاسلـكي . قال فى خطبة خطبها فى جمعية تقدم العلوم الانجليزية وهو رئيس القسم الرياضى والطبيعي منه (نقل هـذه القطعة عنه العلامة (البيردوروشاس) مديرمدرسة الهندسة الفرنسية في كتـابه الحالات العميقة للنوم المغناطيسى . قال :

« ان الذي نعلمه ليس بشيء في جانب ما يجب علينا أن نعلمه وقد يقال ذلك احيانا بلا انتقاد . اما بالنسبة لى انا فهي الحقيقة الحرفية . وارادة قصر مباحثنا على المجالات التي افتتحناها نصف افتتاح يعتبر خيانة لعهود الرجال الذين كافحوا للحصول على حرية البحث

وتخييبا لاقدس آمال العلم » .

﴿ رأي الاستاذ كاميل فلاماريون ﴾

كاميل فلاماريون اكبر فلكي الفرنسيين ومن اشهر فلاسفة الغرب قال في كتابه (المجهول) صفحة ٥٧٨ :

« فلانضيقن دائرة مدركاتنا ، ولا نؤسسن مذاهب ولا نظريات ، ولا نزعمن ان كل شيء يجب ان يعلل حتي يمكن التسليم به ، فان العلم لا يزال بعيداً عن أن يلفظ كلمته الاخيرة في أي موضوع كان »

وقال في كتابه (القوي الطبيعية المجهولة) يخاطب الماديين :

« ايها السادة » مهما بلغ من ضيق احكامكم فان قصر نظركم لا يصح ان يسري على الوجود . فقد اعلنتم بأنه رغماً منكم ومن كل العقبات التي تضعونها فان مركبة المعارف الانسانية ستتقدم الى ابعد مما هي عليه الآن وستستمر متقدمه وهي فائزة لامحالة بادراك قوي جديدة .

الى ان قال :

« ترانا نفكر ولكن ماهو الفكر ؟ لا يستطيع أحد أن يجيب علي هذا السؤال . وترانا نمشي ولكن ماهو العمل العضلي ؟ لا يعرف أحد ذلك . أري ان ارادتي قوة غير مادية وأن جميع خصائص روحي غير مادية أيضاً ومع ذلك فمتي أردت ان ارفع ذراعي أري ان ارادتي تحرك مادتي ، فكيف تحدث ذلك ، وما هو الوسيط الذي يتوسط للقوي العقلية في انتاج نتيجة مادية ؟ لا يوجد من يستطيع ان يجيبني عن هذا أيضاً . بل قل لي كيف ينقل العصب البصري الى الفكر صور الاشياء الخارجية ؟ وقل لي كيف يدرك هذا الفكر وأين مستقره وما هي طبيعة العمل المخي ؟ قولوا لي أيها السادة . . . . ولكن كفى فاني أستطيع ان أسألكم عشر سنين ولا يستطيع اكبر رأس فيكم ان يجيب علي أحقر اسئلتي » انتهى .

﴿ رأي الفيلسوف الكبير هوبرت سبنسر ﴾

هوبرت سبنسر أشهر الفلاسفة العصريين وتعاليمه تعتبر أكثر التعاليم سلطانا على العقول قال في كتابه (الاصول الاولية) صفحة ٢٤٧ :

قال بعد أن سرد الاصول التى يحاول بها تفسير الوجود :

« أي وظيفة تؤديها هذه الاصول فى تكوين هذا الفهم ؟ هل تستطيع واحدة منها ان تعطينا وحدها فكرة عن هذا الوجود أعني عن مجموع ظواهر الموجود الذي لا يمكن ادراكه ؟ واذا اعتبرناها مجتمعة فهل تستطيع أن تعطينا فكرة تساوى جلالة هذا الوجود ؟ واذا رتبت وجعلت مذهبا فهل تستطيع ان تكوّن لنا هذه الفكرة المرجوة؟ ليس لنا على كل هذه المسائل الا جواب واحد وهو : لا »

﴿ رأي الفيلسوف اندريه كريسون ﴾

قال الاستاذ (اندريه كريسون) مدرس الفلسفة فى جامعة ليون فى كتابه (قواعد الفلسفة الطبيعية) وهوفي صفحة ١٧٠

« العلم لا يعطينا على الوجود في مجموعه الامعارف مبهمة للغاية . فاننا لا نعلم العدد الحقيقي للنجوم ولا للكواكب التى تحيط بالشموس البعيدة . فابداء فرض والحالة هذه علي تركيب مجموع الكون لا يمكن ان يكون الا تحكما . فالفلاسفة الطبيعيون المتحفظون يرفضون ان يبنوا من النظريات ما يمكن ان يسمي بالرواية الخيالية للسماء . فهم لذلك يفضلون القيام على ارض ثابتة أقرب الى روح العلم .

الى ان قال :

« ماهي الفلسفة الطبيعية اليوم في الواقع ان لم تكن عقيدة فوق متناول العلم . هل يقتصر الطبيعي على قول مايعرفه ؟ هل يمتنع عن الحكم على الاشياء التى يجهلها . لا ، فان مذهبه يكبر و يمتد لانه في كل خطوة من خطواته يحمل العلم ما ليس عنده . فتراه تلميحا أو تصريحا يؤكد لك بأنه سيحل مسائل لم يحلها وانه سيبت فيها من وجهة معينة ،

أحقق الكيماويون التركيب الحيوي واثبتوا امكان التولد الذاتي ؟ أفسر احد اصل التمثيل الوجداني . اصارت اصول فلسفة النشوء والارتقاء تامة وتنزهت عن كل صعوبة ؟ أقامت نظرية المادة والقوة على حالة نهائية ؟ أتفق العلماء على جميع النقط التى يبحثونها . أصار مما لاجدال فيه ان جميع ما في الوجود خاضع لنظام محدد لايتغير ؟ ألا يوجد عالم اطلاق تتخلف فيه النواميس في جهة أخرى ؟ يستطيع العالم المدقق ان يجيب على هذه الاسئلة بأنه ربما كانت له على هذه المسائل عقائد مؤسسة على المرجحات ولكنه لايستطيع ان يبت فيها بالقول الفصل الذي يتطلبه العلم . ومع ذلك فالفيلسوف الطبيعي يتنكب هذا التحفظ و يبني مذاهب وهو هادي البال فمل من يعتقد ان الاستكشافات المقبلة لن تكذبه .

الى ان قال :

« ان قيمة مايظهر لنا انه اشد المعارف ثبوتا واوضحها صحة لاتزال مشكوكا فيها من وجهة علم العلل الاولية . ولا يستطيع احد ان يثبت انها حقيقية كما لايمكن احد ان يثبت انها باطلة .

الي ان قال :

« فالذي يغتر بنتائج الفلسفة الطبيعية لايجوز له ان ينسى ان هذه النتائج لم تثبت ثبوتا مطلقا ولا يمكن ان تصل الي هذه الدرجة ابدا . فهي تفوق جهد العلم العصري بما لايقدر . ولا يمكن ان تعلن صحتها بدون التسليم بهذا الفرض الكبير وهو : « ان الشيء الذي لايستطيع عقلنا ان يشك فيه هو مظهر الحقيقة الواقعية » فلنقل بايجاز ان الفلسفة الطبيعية ملآى بعقائد غير مثبتة ولاتقبل الاثبات » .

﴿ أثر هذا الانتقال العقلي على الانسان ﴾

(وخاتمة الكتاب)

اننا نستطيع أن نأتي بمئات من هذه الاعترافات ولكننا رأينا أن نجتزيء بما

تقدم خشية الاملال . وليست هذه الاقوال في حاجة الي الشرح ، ولكنني ارجو ان لا يقرأها القاريء كما يقرأ أخبار الصحف بل أن يهبها من التفهم ماهي جديرة به فانها في الحقيقة تبين موقف العقل الانساني في القرن العشرين ، وتنم عن خلاصه من أسر الانخداع للعبارات الفارغة التي كانت تلقب بالعلمية أو الفلسفية وهي مبنية على الوهم البحت أو الدعوي الباطلة التي تجر اليها الكبرياء الجاهلية .

لقد مضى ولله الحمد ذلك الزمان وأصبح العقل معترفا بقصوره ، مقرا بانخداعه لاحكام الحواس ، وهذا عهد جديد كان أثره على ترقيه في ادراك المجاهيل اكبر الآثار المعهودة في تاريخه العقلي وأجلها ، بل كان من أثره انه اصبح في موقف يصلح فيه لانه يدرك الحقيقة التي كان يتهالك عليها ، ولا يصل اليها .

رب قائل يقول : ماهذا التناقض ؟ كيف يدرك العقل انه قاصر ، وانه مخدوع بحواس الجسم ، وانه في وسط بحر لا ساحل له من مجاهيل لم يدرك من مجموعها الا علاقات سطحية لبعض ظواهرها ويكون في الوقت نفسه اجدر مما كان عليه بادراك الحقيقة التي يتفاني في طلبها ؟

جوابنا على هذا الاعتراض :

ان هذا الشعور بالقصور و بالانخداع للحواس هو في نفسه علم عال خرج به الانسان من منطقة التبعية للطبيعة الي منطقة الاستقلال المطلق عنها فاستطاع ان يحكم عليها غير متأثر بعواملها ولا مفتونا بظواهرها ، فنقله هذا الشعور الصحيح فجأة من التعويل على هذه المظاهر المحدودة من القوي العاملة حوله التي سماها بالنواميس الى تلمس ماوراءها من القوي الخفية المسيطرة عليها .

نعم إن الانسان اسير حواسه الجسمية ، ليس له مصدر غيرها يستنزل منه العلم بما يحيط به من الموجودات غير قوة التخيل ، وهذه القوة قد تخطيء المرمى وقد تصيبه بل هي الي الخطأ اقرب منها الى الصواب وصوابها لا يمكن تحقيقه لبعده عن مجال الحس ، وتاريخ العلم مشحون بالشواهد على أن التعويل علي هذه القوة يرمي به الي مطارح بعيدة من الضلال والشطط ، وعلى ان الوقوف مع حكم الحواس ادعى الي

الوصول الى الحقائق التي لا يمكن النزاع فيها وان كان ما يوصل اليه منها شيء قليل لا يبلغ ما يطمح اليه الانسان من فهم الوجود وعوامله الاولية .

هذا كله صحيح وليس في العالم رجل يعول على رأيه ينصح بتسليط قوة التخيل على العلم بعد خلاصه منها منذ نحو ثلاثة قرون ولكن هذه النقطة الجديدة للعقل الانساني من شعوره بقصوره ، و بانخداعه لحواسه ، و بان ما يراه وما يحس به ليس هو الا مظاهر وقشوراً للباب تعمل فيه قوي ارقي من القوي التي يدركها ، هذه اليقظة الجديدة نبهته لخطأ جلل كان يقع فيه و يعتبره ألمعية ، و يصم من لا يشايعه فيه بالعامية . هذا الخطأ الجلل هو عزوه كل ظواهر الوجود الى العدد المحدود من مظاهر القوي العالمية التي سماها بالنواميس ، وتشدده في ذلك الي حد الافراط الذي ليس بعده مرمى .

فكان اذا رأي ظاهرة جديدة عللها بتلك النواميس فان علت عن النواميس حط منها لتقبل التعليل صاغرة و يعز عليه ان يعترف بقصور تلك النواميس و بوجود ظواهر في الكون يجب ان يكون لها نواميس أرقي منها . وقد حصل بالجري على هذا الاسلوب الى حال من الجمود العلمي استحال معه العلم وهو متواضع منصف معترف بعجزه الي طاغية متعجرف ليس لاستبداده حد يقف منه .

واننا نضرب لك مثالا من ذلك : يشهد الحس نفسه ان الفارق بين الجماد والانسان من العظم بحيث لا يدع محلا لأي نزاع ، ذاك ميت لا حس به ولا شعور ، وهذا حي له حس وشعور وله فوق ذلك ادراك يصلح لاخضاع قوي الطبيعة نفسها ، فالنظر المجرد اليهما يقضي بالحكم بأن في الانسان قوة ليست من نوع القوى التي في الجماد ، قوة يجب درسها والوقوف على مصدرها ، وعدم التسليم بما يتخيله العقل بشأنها حتى يؤيده شاهد من المحسوسات .

هذا ما يجب على كل باحث في الطبيعة متبصر منصف ولكن النزعة التي كانت استولت على أهل العلم قبل هذا الدور كانت لا تسمح لهم بهذا التبصر والانصاف ، بل كانت تدفعهم لغلوهم في الاعتداد بالنواميس التي اكتشفوها الي الزعم بأن القوي العاملة في الانسان هي نفس القوي العاملة في الجماد حرصا على السلطان الوهمي الذي

تحاوه بحيالاتهم لتلك النواميس . فان قلت لاحدهم كيف يمكن تعليل صدور القوة العاقلة من قوة عمياء لاشعور لها ولا ادراك ؟ أجابك أمثالهم وهو (بوخنر) العلامة الالماني بقوله كما جاء في صفحة (٤٥) من كتابه القوة والمادة :

« ان ادراك هذا السر يقتضي أن يعلم هذا الامر وهو ان قوي طبيعية بل وعقلية تلازم جواهر المادة . وهذه القوي العقلية تظهر في جميع الاحوال التي تجتمع فيها شروط ضروورية في المخ أو في المجموع العصبي حيث تكون عناصر المادة متحدة علي شكل خاص ومتأثرة بحركة خاصة فتنتج منها ظواهر الشعور والفكر كما تنتج فيها في احوال أخري ظواهر الجذب والدفع »

فليتأمل القاريء في مبلغ هذا الجمود العلمي ، فان بوخنر لاجل ان يماشي المذهب المادي القاضي بان لاموجود غير المادة وقوتها الملازمة لها ، آثر ، وهو حيال مسألة تعليل وجود العقل الانساني ، أن ينحل المادة صفة العقل وأن يبذل قصاري جهده في اذاعة هذا الحكم ، على أن يقف موقف المتثبت المتبصر فيبحث لعله يجد لهذا العقل أصلا عقليا عاليا مستقلا عن المادة ، بل لعله يجد هو أو غيره بعد خمسين أو مئة سنة ان المادة ليست بشيء غير حركة اثيرية كما مال اليه جمهور العلماء اليوم .

ان هذه الجرأة المفرطة في الحكم على مساتير الوجود ببضعة القشور العلمية المعروفة ، ليست من العلم في شيء ، بل هي من تسليط قوة التخيل على العلم والفلسفة معا وتحكيمها فيهما ، ومن الغريب ان الماديين مع هذا الافتئات كله يدعون أنهم قائمون على الاسلوب العلمي الدقيق ، وأنهم لا يحكمون على الوجود بقوتهم المخيلة .

فان أظهرت تعجبك من عقلية الماديين في اكبارهم للمادة الى هذا الحد حتى نسبوا اليها العقل (مع أنهم في جهة أخري يقولون لاعقل بغير مخ) دهشوا من تعجبك هذا وقالوا لك كما قال بوخنر في كتابه المتقدم وهو يدعي الكتاب المقدس للمذهب المادي :

« ان المادة ليست بشيء حاصل علي طائفة كاملة من خواص سلبية ، كما اعتاد

الناس ان يتمثلوها خطأ على تلك الحال ، ولكنها في الواقع على الضد من ذلك كله. فالمادة ليست ميتة ولا جامدة بل هي متحركة في كل مكان وملأى من الحياة على أقصى درجات النشاط . وهي ليست مجردة عن الصورة ، بل ان الصورة والحركة كما يري بعدُ من خصائصها الضرورية اللازمة لها . وليست المادة بغليظة كما يقول بذلك خطأ رجال ليسوا على شيء من العلم ، ولكنها من اللطف بحيث لا نستطيع ان نتصور ذلك تصورا . وليست مجردة عن القيمة بل هي على العكس الام العامة التي يتولد منها كل كائن . وهذا معني هو اسمي المعاني المعروفة . وهي ليست مجردة لا من الشعور ولا من العقل ولا من الفكر (تأمل) فهي قابلة لارقي درجات الشعور ولأكمل اعمال الفكر في الكائنات الحية المتولدة منها عن طريق التدرج » انتهى .

الى هذا الحد وصل تحكم الماديين في ادعاء خصائص للمادة ليمكنهم ان يحافظوا على مذهبهم في عدم وجود شيء سواها في هذه اللانهاية الوجودية كلها ، حتى اذا ثبت لهم أن من الناس من يعرف الامور المستقبلة لقرروا حرصاً على كيان مذهبهم ان يزيدوا في صفات المادة صفة أخري ولأضافوا الي قولهم انها عاقلة مفكرة قولهم (وتعلم الغيب أيضاً) وقس على هذا . ولكن هذا الضرب من التحكم ليس من العلم في شيء بل هو من تسليط قوة التخيل على العلم والفلسفة والاستبداد بالرأي الى حد يأباه العقل نفسه. لأنه يُشعر بأن القائلين به قد عرفوا سر تركيب المادة ، وفاجأوها في عالمها الاثيري الاعلى متحلية بكل هذه الصفات التي ينحلونها اياها . فهل تصل الدعوي بالماديين الي هذا الحد ؟

اذا سألنا عن ذلك زعيم الماديين (بوخنر) اجابنا بما قاله في صفحة (٤٥) من كتابه المادة والقوة :

« نحن لا نعلم ماهي المادة في ذاتها كما لا نعلم ماهي القوة في ذاتها أيضاً ولا ندري ما اذا كانت المادة واحدة في أصلها أو مكونة من ستين أو سبعين عنصرا كيماويا معروفا ، ولكنا نعلم بطريقة مؤكدة بأنه يوجد شيء يجذب ويرفع ويقاوم ويتحرك وينتج ظواهر النور والحرارة الخ . وان في الوقت الذي يزول فيه هذا الشيء يزول

هذه الظواهر منه . هذا الشيء هو الذي نسميه مادة ونسمي الظواهر المذكورة مظاهر لها ، ونسمي سبب هذه الظواهر القوة المشموله في المـادة » .

نقول هذا كلام صريح في ان الماديين يجهلون ماهية المادة وماهية القوة ، فمن أين جاءهم اذن انها هي الموجود الاول ، ألا يجوز ان يكون الموجود الاول هي القوة ، وان المادة تنزلت منها كما يقول به جمهور الطبيعيون اليوم؟

وهل ملازمة الجذب والدفع والحركة والنور والحرارة للمادة يضطرنا للقول بملازمة القوة العقلية لها أيضاً ، مع وجود الخـلاف الجوهري بين الظواهر الآلية ، والظواهر الادراكية ؟ أليس الجزم في هذه الامور الخطيرة التي هي فوق متناول العقل والتجربة معـا ينم عن طيش ونزق لا يصـح ان يتصم بهمـا باحث طبيعي يجـدّ وراء الحقيقة ؟

يقول قائل منهم : ومن اين جاء للدينيين ان أصـل الوجود روح مـدبر مريد مختار اوجـد الاشـياء من العـدم المحض ، وقام على تدبيره بحكمة ليس لهـا حـد ؟

نقول : نحن الآن في مجال العلم الطبيعي لافي مجـال الدين فان أراد المـاديون ان يقتاسوا بالدينيين كفانا منهم هذا الاعتراف وحده وعددنا مذهبهم دينا لاعلما ، وأضفناه الي جدول الاديان البشرية ، ولـكنهم لايقبلون ذلك بل يأنفون منه مدعين انهم على الصراط العلمي الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فان صدقوا فكيف يتفق هذا الضرب في الخيالات ، وهـذا التحكم فى المجهولات ، والقطع في النهايات والبداءات ، مع اسلوب الفلسفة الحسية التي تفتخر بعدم تعرضها لما يعلو عن متناول التجربة والمشاهدة ؟

قال العلامة (ليتريه) وهو خليفة (اوجست كونت) واضع تلك الفلسفة في كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) :

« بما اننا نجهل اصول الـكائنات ومصائرها فلا يجوز لنا ان ننـكر وجود شيء سابق عليها اولا حق لها ، كما لايجوز لنـا أن نثبت ذلك ، فالمذهب الحسي يتحفظ

كل التحفظ في مسألة وجود العقل الاول لاقراره بجهله المطلق في هذا الشأن ، كما ان العلوم الفرعية التي هي منابع المذهب الحسي يجب عليها ان تحترس من الحكم علي أصول الاشياء ونهاياتها بمعني اننا ان لم ننكر وجود الحكمة الالهية فلانتعرض لاثباتها لاننا علي الحياد التام بين النفي والاثبات » .

وقال الفيلسوف (رو بينيه) في كتابه (الفلسفة الحسية) .

« يريد الفلاسفة الحسية ان يبعدوا كل خيال أو توهم وان لايعتمدوا الا على المشاهدة المحسوسة وان يحذفوا من أقوالهم كل الافتراضات التي لا يمكن تحقيقها » انتهى.

اذا كان الامر كذلك ألا يكون من الحكم علي اصول الاشياء ومصائرها زعم الماديين بأن أصل الوجود المادة ومصيره المادة ؟ وهل القول بأن المادة عاقلة ومفكرة يعتبر بعدا عن كل خيال وتوهم ، واعتمادا علي التجربة والمشاهدة ؟

اللهم ان المذهب المادي ليس من العلم الطبيعى لانه مبني علي احكام لايمكن مشاهدتها ولا الحكم عليها بالتجربة ، وليس من الفلسفة الحسية لانه قائم على الخيال والوهم والافتراضات التى لايمكن تحقيقها ، فما هو اذن ؟ هو عرض لمرض الزهو الذي كان أصاب العقل الانساني بتأثير توالى الفتوحات العلمية ، فخيل اليه ردحا من الزمن انه ادرك كنه الوجود ، فقام محاطا بالآلاء المخترعات والمستكشفات يقطع ويفصل في أمور الكون كأنه خلقه بيده ، وكان الناس تأخذ تلك المخترعات والمستكشفات المتوالية بألبابهم فيخيل اليهم أن العقل العصري الذي هي آثاره لايقرر ما يقرره من الامور الفلسفية عن طيش أو نزق ، فاندفعوا في تياره بغير روية ، واحتقروا كل مايخالفه من المذهب الفلسفية .

اما اليوم وقد صحا العقل من نشوته ، وتنبه من غفوته، فقد تبين له ان كل ما حصله من المكتشفات العلمية لايتعدي العلاقات بين الكائنات ، ولا ينفذ الي ما بعد قشورها الغليظة ، وان كل ما رأيناه من المزاعم على هذه القشور ليس له اصل يقوم عليه ، بل هو مجموع من دعاو باطلة أدي اليها زهو لاموجب له بأمور لاتبلغه

بعض ما يتوق اليه من لباب الحقيقة ، وأدرك انه مخدوع بحواسه في كل شعور من شعوراته ، فهب يهيء لنفسه اصلا آخر يقوم عليه ليسير بقدم ثابتة الي عالم الحقيقة. فأعلن علي رؤس الاشهاد ان كل هذه العلوم التي حصلها في مدي القرون السابقة لاتتعدى العلاقات بين الكائنات ، وانه لايتصل بها الا بهذه الحواس الخمس وهي مضلة خداعة ، لا تصله منها الا بظواهرها المناسبة لتلك الحواس ، وانه إن اعتمد على مقرراتها في الحكم على الحقيقة كان ضاربا في متاهات من الخيال المحض تنزل به الى حضيض من الجهل يكون تأثيره على افساد كيانه أشد من تأثير أي مذهب من المذاهب التى هدمها وأقام فلسفته على انقاضها .

هذه اليقظة من العقل نقلته كما قلنا من منطقة التبعية للطبيعة الى منطقة الاستقلال عنها ، ومكنته من الحكم عليها غير متأثر بعواملها ولا مفتون بظواهرها ، ودفعته بقوة قاهرة الى تلمس ماوراءها من القوي الخفية المسيطرة عليها . فأصبح العقل اليوم يتهم مدركاته السابقة ، ويحاسب كلا منها حسابا دقيقا حتى لاينخدع لالفاظ وضعها بخياله وحمل من نيرها ما حمل قرونا عديدة .

فاذا كان العالم في عهد غروره العلمي يحل بكلمة (الطبيعة) مالايحل من معاضل الكون ، ويعقل بها مالايعقل من أسراره ، فهو اليوم لايأبه بهذه الكلمة لانه يراها فارغة ان تجردت عن علم صحيح بكنه المادة وكنه النواميس العاملة فيها ، واين هو من ذلك ؟

وكان اذا سأله سائل عن عالم ارقي من عالم المادة جزم بعدم وجوده ، فان ناقشه السائل فى جزمه رماه بأنه من الجهل بحيث لايفهم مايقال له ، ولكنه اليوم اندفع يبحث عنه بكليته ، وعلى نفس الاسلوب العلمي وطريقته .

وكان اذا ذكر له عالم الروح ضرب بيده مكتبه وصاح قائلا هذا ضلال قديم لقد شرحنا الجسم فلم نجد فيه للروح أثراً .

ولكنه اليوم وقد ظهر له انه كان مخدوعا بحواسه ومغرورا بقشور علومه ، فقد عاد اليه التبصر الذي يجدر بكل باحث عن مساتير الوجود وأصبح لا يجزم

بوجود شيء ولا بعدم وجوده حتي يتحقق من ذلك بالاسلوب العلمي من المشاهدة والتجربة .

لذلك لم تظهر أول حادثة من الحوادث المعزوة للارواح في أمريكا سنة ١٨٤٨ حتى بادر لتحقيقها بنهمة المتعطش للحقيقة لا بكبرياء المدعي الالمام بالطبيعية ، ولما ثبتت له صحتها اخذ في تحقيق كل ما يشابهها في كل بلد . ولما آنس ان هذه المباحث تؤدي الي اكتشاف قوي مجهولة من عالم أرفع من هذا العالم أخذ في تكوين الجمعيات العلمية لبحثها ، وما زال دائباً وراء هذا السبيل في مدي اكثر من سبعين سنة ، حتي تحقق ان حل مساتير هذا الوجود المادي لاسبيل اليه الا بالوقوف على حدود ذلك العالم المعنوي ، وتأكد أن العلم ينقطع عند التخوم التى وصل اليها من مباحثه المادية ولكنه يتصل بذلك العالم الروحاني و يمتد فيه الي مالانهاية ، وتبين اننا لم نر من الطبيعة الا جهتها المادية ولكن جهتها المعنوية الجامعة لكل القوي التي كنا نعتبرها مجهولة هي في ذلك الذي كنا نجزم بعدم وجوده ، فانفتحت امام العقل الانساني والعلم التجريبي باحة ليس لها حد تقف عنده ، والفرق بين العالم الباحث و بين الاعتقاديين امام تلك الباحة ، انهم كانوا يحكمون قوة التخيل فى الحكم على كائناتها ، ولكنه الآن يحكم فيه المشاهدة والتجربة أي الاسلوب العلمى بكل ما يقتضيه من تحليل وتمحيص .

فلم يعد العقل يعتبر العلم الطبيعي واقفاً عند حدود هذه المادة المحسوسة ، ولا الاسلوب التجريبي مقصورا عليها . فبعد أن كان عالم ما وراء المادة لا ينال الا بالمكاشفات الروحانية ، من طريق الرياضات النفسانية، فيؤمن به واحد عن عيان، و يسلم به الكافة من طريق الايمان ، أصبح اليوم جزءاً من علم الطبيعة ، يسري عليه ما يسري على سائر أجزائها من الاساليب التجريبية والنظم العملية ، فبطلت المنافسة القديمة بين الدين والعلم، اذ اختلطا معاً وصارا شيأواحدا ، فبعد أن كان الانسان يقرأ العلم فيمتلىء شكوكا وشبهاً ، و يرجع للدين فيجده لاعتماده علي المسلمات ، وقيامه علي الايمان بالغيب ، لايشفي للمتأثرين بشكوك العلم علة ، ولا ينقع لهم غلة ، أصبح

اليوم بفضل دخول المباحث النفسية الي حظيرة التجربة لايجد امامه الا علما جامعا لطالبيه ، موفقا بين حاجات جوهريه ، وهي حالة كانت من المستحيلات في نظر جمهور المفكرين ، فصارت هي الامر الواقع في القرن العشرين .

كيف حدث هذا الانقلاب العظيم ؟ وما الذي أوجبه واقتضاه في عصر كان يعتبر أعرق العصور في الشكوك ؟ ماهي أدوار هذا الانقلاب ؟ والى أي مدي بلغ تأثيره في أوروبا وامريكا ؟

أحسن وأجمع ما كتبناه في هذا الموضوع هو مانشرناه في مجلة المقتطف الزاهرة فى خمس عشرة مقالة متتابعة من يناير سنة (١٩١٩) الي (ابريل) من سنة (١٩٢٠) فرأينا ان نجعلها مادة الجزء الثاني لهذا الكتاب بعد ان نضع لها مقدمة هي ترجمة مقدمة وضعها الاستاذ الكبير كاميل فلامريون لكتابه العظيم المسمي بالمجهول والمسائل النفسية والحمد لله اولا وآخرا

سيظهر الجزء الثاني من هذا الكتاب في أول شهر سبتمبر سنة ١٩٢١

(تصحيح خطأ)

اقرأ في صفحة ٦٥ في السطر السابع والثامن (يدوا دومايه) بدل (بيوا دومايه)








Bibliotheca Alexandrina
03379784